انتظار الماضي

مجموعة قصص قصيرة

أحمد ولد إسَلْمُ

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-01-1681-8

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إهداء

إلى من انتظروني..

إلى من انتظرتهم..

إلى حلمي المنتظر

المحتويات

ابتسامة حامدينو..... 7

رقم مخفي..... 19

المشموم..... 23

هل أشرح لك؟..... 27

النداء الأخير..... 31

الكرسيّ المحجوز..... 35

ورقة عائمة..... 41

انتظار.. مع كأس عصير..... 45

لو جئت أمس..... 49

وحصلتِ عليكِ.. أخيراً..... 57

درب..... 61

صفر اليدين..... 65

لفتة مصير..... 71

ولماذا يضحك..؟!..... 75

المنتظر..... 81

خاتمة..... 85

سيرة ذاتية..... 87

ابتسامة حامدينو..

قرأ الملاحظة المكتوبة على لوحةٍ صغيرةٍ أمام شباك البنك بعناية فائقة؛ *يرجى عدّ نقودك قبل المغادرة* تأكّد أن المبلغ سبعة آلاف، تماماً كما أجابه المحاسب حين سأله عن رصيده الإجمالي.

نظر إلى هاتفه، كانت الساعة العاشرة وعشر دقائق.

– لا بأس، ما زال أمامي وقت كافٍ – قالها في نفسه – فهي لن تأتي إلا متأخرةً ساعة بعد موعدها.

أسئلة كثيرة دارت في خلده وهو يتأكد من إدخال محفظته المهترئة في جيب قميصه، ويحكم إغلاق سحاب سترته. لم يكن الطقس بارداً، لكنه إجراء أمني تعلّمه من الحياة في شوارع نواكشوط.

ازدحم مع خمسة آخرين في سيارةٍ بالكاد توقّفت قرب مفترق طرقٍ شرق السوق المركزية وسط المدينة.

رنّ الهاتف في جيبه محدثاً اهتزازاً شعر به الراكب المتكدّس على يمينه، ووجد صعوبةً بالغةً في إيجاد ممرٍّ ليده إلى جيب سرواله. لم يتدارك الرنين، لكنها كانت هي المتصلة، ضغط الزر الأيسر ليتصل بها فأيقظته الجملة التي طالما سمعها "عفوا.. ليس لديك رصيد كاف لإجراء هذه المكالمة".

– لن يدوم ذلك طويلاً – قالها في نفسه

- حين وصل محطته المقصودة في أقصى حي توجنين في أقصى شرق العاصمة نواكشوط، كان الأخير الذي بقي في السيارة المتهالكة. وبدت علامات الاستياء على وجه السائق واضحة، و لم يكد يتفوه بعبارته.
- انعطف يسارا لو سمحت!
- حتى انفجر السائق في وجهه:
- تقطع كل هذه المسافة بمائة واحدة وتطلب مني الانعطاف أيضاً! ألا تقدِّر أن المازوت زيد سعره في ما انقضى من هذه السنة فقط خمس مرات، وما زال سعر التوصيلة على حاله.
- حاول إبداء نوع من التعاطف مع السائق المنزعج فقال له:
- كلنا نعاني الحال نفسه، لكن لو انعطفت بي يساراً وانتظرتني عشر دقائق سأعود معك إلى ملتقى طرق مدريد، وسأدفع لك حينها أربعمائة.. ما رأيك..؟
- لم يجب السائق المتذمّر لكنه توقف به أمام المغسلة التي يريد.
- "لباسك غير جاهز، وأرجو أن لا تتذمر، فأنت لم تدفع أوقيةً واحدةً منذ شهر"..

هكذا بادره الغسّال المنشغل بجمع كومة من الملابس المتّسخة.

- سأدفع لك كل ما تريد، ولكني أحتاج ملابسي الآن، فلديّ موعد مهم. لا بد أن أكون في لباس لائق.

وغمز الغسّال ذا العضلات المفتولة – نتيجة غسله الملابس بيده– بعينه اليسرى.

- إن كان ذلك فليس في لباسك ما يمكن أن ترتدي.. ألقِ نظرةً على تلك الملابس المرصوصة فوق الطاولة فأصحابها غير مستعجلين، يمكن أن تدفع ألفاً وخمسمائة عن الدراعة، تحضر فيها لقاءك المهم وتعيدها غداً.

اهتز الهاتف في جيبه، كان الصوت مشوّشاً.. لكنه فهم منه؛ "ليس لديّ رصيد اتّصل بي"

تذكّرَ أن لا رصيد لديه هو الآخر، توجّه إلى بائع الرصيد الجالس تحت مظلة أمام الدكان أعطاه ألفاً فحوّل له ألفاً وخمسمائة من الرصيد.

عائداً إلى المغسلة، كان السائق المتذمّر قد خرج من سيارته صارخاً:

- إذا لم تكن مستعجلاً فاعطني نقودي وابقَ هنا إلى يوم القيامة إن شئت.
- انتظر دقيقةً من فضلك.
- لا وقت لديّ.

تجاهله وتوجّه إلى الطاولة، اختار دراعة بيضاء رائعة التطريز ثم التفت إلى الغسّال قائلاً:

- أليس معها سروال؟
- السراويل هناك، ستدفع خمسمائة أخرى
- سنتحاسب لاحقاً. قالها وهو يقلب السراويل ليختار ما يناسب الدراعة

لكن قبضة الغسّال القوية على يده كانت كافيةً لإفهامه.

- حسناً على مهلك، سأعطيك الآن ألفي أوقية مقابل الدراعة والسروال، وغداً حين أعيدها إليك، سأدفع لك الباقي.

ارتخت قبضة الغسّال قليلاً لكنه لم يتكلّم، أخـــذ الألفـــين، ثم تشاغل بتجميع ملابس متناثرة.

لدى خروجه كان الغسّال يقول كلاماً غير مسموعٍ فهم منـــه كلمة الشرطة، فمنبِّه سيارة الأجرة كان متواصلاً.

اهتز الهاتف مرةً واحدةً، ثم انقطع.. أعاد الاتصال بالرقم، سمع كثيراً من اللوم تدرَّجَ إلى عتب، كان منصتاً وهادئاً، ثم أجاب:

- يا عزيزتي الرحلة من الدار البيضاء إلى نواكشوط تستغرق ساعتين ونصف الساعة. ما زال لديّ كثير من الوقت
- لكن لا أريد أن أرى أحداً قبلك في المطار.. قالت الفتـــاة التي يتعلق بها و لم يسبق أن رأى حتى صورتها.
- لن تري أحداً قبلي.. ولكن كيف سأميِّزك؟ بالنســـبة إليّ سأكون مرتدياً دراعةً بيضاء وقميصاً أزرق، وأحمل لوحـــةً عليها اسمك؟
- اسمي.. هل جننت؟.. أهلي سيكونون في استقبالي، ولو رأى أحد منهم لوحةً بيدك عليها اسمي ستبيت ليلتك في مفوضـــية الشرطة.. ستعرفني على أي حال.. فقلب المحب دليله.

كان الهاتف يرن في أذنه منبّهاً إياه إلى قرب انتهاء الرصـــيد.. استعجل إنهاء المكالمة قائلاً:

- المهم سأكون هناك قبل الموعد.. انتبهي لنفســـكِ.. لكـــن الكلمة الأخيرة لم تصل إليها.

توقفت السيارة للمرة العاشرة، لكنها الآن عند مفترق طـــرق مدريد، سلم السائق خمسمائة ونزل بانتظار مائتـــه المتبقيـــة، لكـــن السائق المتذمّر دائماً، أجابه بعنجهية:

- انتظرتك أكثر من عشر دقائق، هذه المائة لي.

لم يجبه، لكنه أغلق الباب بعنف، فانطلق صاحب السيارة بما سمحت له الزحمة من سرعة.

حين قطع الجانب الجنوبي من الطريق، تذكّر أنه كان يحمل دراعةً وسروالاً دفع مقابلهما ألفي أوقية لمدة أربع وعشرين ساعة، التفت شمالاً، لكن السيارة اختفت في الزحمة وجاءت دونها شاحنة كبيرة تحمل أكثر من طاقتها الاستيعابية من أكياس الفحم.

صرخ بأعلى صوته مستوقفاً السيارة، لكن نظرات المارة وركاب السيارات ومزامير المستعجلين أربكته، توجّه إلى صاحب سيارةٍ مركونةٍ قائلاً:

- أريدك أن تتبع تلك السيارة، فقد نسيت فيها ما قيمته أكثر من خمسين ألفاً.
- كم ستدفع لي..؟ أجابه السائق ببرود.
- أدفع لك ما تريد.. المهم أن ألحق بها.
- لا أضمن لك ذلك.. لكن اركبْ.. هل تعرف إلى أين تتجه؟
- إلى السوق المركزية
- السوق.. السوق.. السوق.. كان السائق يصيح باحثاً عن ركاب آخرين.
- ماذا تفعل..؟ أقول لك صاحب السيارة ذهب بـ...
- هل ستدفع مقابل الركاب الستة المفترضين؟
- نعم ولكن انطلق بأقصى سرعتك..

كانت الزحمة خانقة، مر نصف ساعة قبل وصولهما منتصف المسافة، انعطف السائق يميناً متسائلاً ببرود:

- هل تعرف اسمه.. أو رقم سيارته؟
- طبعاً لا.. لو كنت أعرف أيّا من ذلك لكنت اتصلت بصديقي في الشرطة و لم أدفع لك ستمائة أوقية.

بعد عشر دقائق كانت السيارة تقف عند ملتقى طرق شرق السوق المركزية، نزل منها ملقياً نظرة على وجوه سائقي السيارات المزدحمة، علّه يميّز السائق المطلوب من بين الوجوه، لكن السائق استحثّه ساخراً:

- ادفع لي مئاتي الست، ولديك بقية اليوم لتبحث عن إبرة في بحر.

أعطاه ألفاً فأعاد إليه الباقي، وهو يتفحّص الوجوه على طول الطريق، وقعت عينه على سيارة تقف أمام أعرشة بها نساء يعملن في تلوين الملابس، كانت إحداهن تعطي ورقة لرجلٍ مستعجلٍ يغلق بإحكام باب سيارته. حاول أن يستوقفه بالصراخ، لكن السائق الذي رآه في مرآته المكسورة، انطلق بسرعةٍ فائقةٍ سالكاً طريقاً رملياً بين البنايات. حاول أن يعرف رقم السيارة، لكنها لم تكن تحمل لوحة خلفية.

سأل صاحبة المحل إنْ كانت تعرف الرجل، وقبل أن تجيب أردف قائلاً:

- هذه الدراعة وسروالها لي، وقص عليها كل التفاصيل، لم يبدُ على وجه السيدة التي تلوك مسواكاً من الأراك أنها فهمت شيئاً مما قال، لكنها أجابته أن أسعار التلوين تختلف حسب نوعية الملابس وتدرّج ألوانها.

عبثاً حاول أن يشرح لها، توجّه إلى كومةٍ من الملابس وأخذ منها الدراعة والسروال المطويين بشكل جيد، وقال لها:

- هذه لي.
- أجابت باستغراب:

هذه لصاحب السيارة الذي انطلق قبل قليل.

- هل تعرفين اسمه أو رقم هاتفه؟
- لا أعرف.

متذمراً، أخرج هاتفه من جيبه، حاول الاتصال بصديقه إبراهيم الشرطي، لكن الهاتف كان مغلقاً، فشحنته منتهية.

مستغرقاً في الورطة التي وقع فيها، قرر العودة إلى توجنين. نظر إلى ساعة الراكب المحشور بين اثنين على يساره، كانت الساعة الثانية وخمس دقائق. خطر له أن يتوقّف عند ملتقى مدريد وسط المدينة فقريباً منه أقرباء له، عادةً يتردد عليهم صديقه إبراهيم، ومن عندهم يشحن هاتفه..

كان العطش يأخذ منه مأخذاً، اشترى من البقالة المجاورة عصيراً بارداً دفع مقابله مائتين، ومائة دفعها لبائع الرصيد لتحويلها إلى هاتفه.

حين دخل بيت أقربائه ابتسمت والدتهم الخمسينية قائلة:

- جاءكم الفرج، ها قد وصل أحمد. أعرف أنّ جدي أحد الصالحين و لم أستغثْ به في ضائقةٍ إلا فُرجت.
- متفاجئاً من كلامها أجابها قبل أن يسلم:

.. خيراً.. ماذا هناك؟!

- فاطمة تعاني آلاماً حادّة في البطن، أعتقد أنها الزائدة الدودية. كنا نحتاج من يوصلها إلى المستشفى.

- ولكن لا سيارة معي.
- أعرف ولكن لا بد أن تجد لنا سيارة.. انظر حالها..

نظر إلى الشابة المتلوية ألماً، وتذكّر ما كان بينهما من سابق المودة، قبل أن يتزوجها ابن عمها الذي هاجر العام الماضي إلى إسبانيا، وبعث إليها رسالة طلاق وعشرة آلاف بعد ولادة طفلها.

- حسناً.. ضعي هاتفي في الشحن حتى أجد سيارة أجرة.
- سأحتاج منك ألفي أوقية حتى نهاية الشهر، فليس لديّ ما أشتري به الدواء لها.

لم يجبها. كان فكره مشغولاً بالدراعة والسروال.

واضعاً سترته على رأسه لتقيه حرّ الشمس، حاول شقّ صفوف الخارجين من المسجد، لكن أحدهم سحب السترة بعنفٍ قائلاً:

- حتى ولو أخفيت وجهك يمكنني تمييزك من بين ألف رجل.

التفت لمعرفة مصدر الصوت لكن الرجل لم يمهله

- ألم تقل لي إنك ستدفع لي اليوم ألفين على الأقل؟ هل تعتقد أن الإنترنت مجاناً؟.. تسهر كل ليلة مع تلك الفاسقة، حتى الفجر ولا تريد أن تدفع.
- لو قلت هذه الكلمة مرةً أخرى سأحطّم وجهك، إنها أشرف وأطهر منك.
- لو كانت شريفةً ما كانت تسهر معك كل ليلةٍ وهي لا تعرفك.
- هذا ليس من شأنك.
- اعطني ما وعدتني به، فلديّ فاتورة كهرباء لا بد من سدادها اليوم.

- خذ هذه الألف والألف الباقية سأعطيك إياها لاحقاً.
- مستحيل... تعرف أني أطالبك بأربعة آلاف وصبرت كل هذه المدة.
- لديّ ظرف خاص. فاطمة قد تحتاج عملية..

قالها وهو يتملّص منه، لكن صوته ما زال يصل إليه وهو يهدده باستدعاء الشرطة.

عاد بسيارة أجرة ودفع لها أربعمائة أوقية لتوصل فاطمة وأمها إلى المستشفى. وهي تغلق باب السيارة نادت عليه:

- وماذا أفعل هناك؟
- ليس لديّ سواها..

أخرج ألفاً من محفظته و لم يبقَ فيها سوى مائة واحدة

- جزاك الله خيراً.

قالتها المرأة الخمسينية وهي تحكم قبضتها على الألف، فيما كان رنين الهاتف يستحثّه على الدخول.

فتح الهاتف العتيق من دون النظر إلى الرقم. لكن صوتاً مرعوباً مُزِج بغضب صاح به قائلاً:

- أين أنت؟
- تأكد من الرقم فإذا هو الغسّال..

ماذا تريد؟

- أريد الدراعة التي معك حالاً، صاحبها واقف فوق رأسي... أحاول الاتصال منذ ساعة.
- هاتفي كان مغلقاً... لكن..

- من دون لكن.. إذا اكتملت الساعة و لم تكن الدراعة هنا، فلا تلم إلا نفسك..

كان صوت شخصٍ آخر بدا متشنجاً قبل أن ينهي المكالمة.

أراد معاودة الاتصال، لكن الجملة المعهودة أصمّت أذنه "ليس لديك رصيد...".

- غير معقول.. حوّلت قبل قليل مائة أوقية.
- اتصلت منها ماما قبل قليل.. قالت طفلة تمص إبهامها..
- .بمن اتصلت؟
- .بمحمد في ساحل العاج.. قالت إنها لم تكفها ورمتها هناك.

وضع السترة على رأسه. مشى عشر دقائق، وانتظر عشراً أخرى، ليزدحم مع ثلاثة في مؤخرة سيارةٍ متهالكةٍ إلى توجنين.

كانت سيارة شرطة واقفة أمام المغسلة، ومنها أشارت يد إليه. وقبل أن يتمكن من رفع السترة عن رأسه، انهالت صفعة قوية على خدّه، وهوت يد قوية أخرى على رأسه، وأُلقي في مؤخّرة السيارة.

* * *

في المطار..

كانت فتاة متأنقة تجر خلفها حقيبةً جلديةً راقية، تغادر شباك ختم الجوازات. غمرتها أحضان والدها الذي كان ينتظرها قرب الشباك، وهو يدخن سيجاراً فاخراً، ابتلعتها سيارة رباعية الدفع كانت تقف أمام الباب مباشرة...

وهي تتفحّص وجوه المنتظرين الفرحين والقلقين، ألقت نظـــرةً على صورةٍ في هاتفها الذكي لتتذكّر ملامحه لكن زجـــاج الســـيارة المظلّل حال دون ذلك..

* * *

في قسم الشرطة، كان محقّق بدين مكتئب يدخّن بشراهة يسأله عن اسمه؟

أجابه وهو يمسح بيده قليلاً من الدم عن شفته السفلى ويبتسم:

- اسمي حامدينو(*)
- ولماذا تبتسم...؟!

دبـــي 2012

(*) في الميثولوجيا الشعبية الموريتانية أن "حامدينو رجـــل اعتقلـــه الأعـــداء فضحك، فلما سألوه عن السبب قال: رأسي على النطع ليُقطع وزوجتي تعتقد أني أخوها الآن مع امرأةٍ أخرى".

رقم مخفي

بعينيها الصافيتين، المختبئتين تحت نظارة قراءة، كانت تجلس في زاويةٍ قصيّةٍ بأحد المقاهي الراقية في حي "دبـــي مارينا"، تحرك نسائم الخليج المحاط بغابةٍ من الأبراج طرف ملحفتها(*) لازوردية اللـــون، وبين يديها كتاب يبدو غلافه أنيقاً، وأمامها فنجان قهوة لا يبدو أنها ارتشفت منه أكثر من رشفتين.

وهي منهمكة في مضمون الكتاب الذي تقرأه، ما يوحي أنه رواية جيدة الحبكة، أو كتاب فلسفي عميق، يستهلك كل تركيزها، ويجعلها في عزلةٍ نفسيةٍ عن ضوضاء التكنولوجيا المحيطة بها؛ ويلهيها حـــتى عـــن الاستمتاع بالنظر إلى الخيوط الرقيقة لأشعة الشمس التي تكافح بصعوبة لاختراق الفراغات الضئيلة بين الأبراج الشاهقة، لتطبع قبلة وداعٍ علـــى مياهٍ لم تترك لها اليخوت الفارهة فرصةً لرد التحية.

كنت أبث هموماً رافقتني من الليلة الماضية، عبر دخان سيجارتي المتماوج بكسل، وقعت عيناي على تلك الزاوية القصـــيّة. انتـــابني فضول عارم لإلقاء التحية.

(*) "الملحفة" هي الزي الرسمي للشريط الصحراوي الممتد من شرق السودان وحتى المحيط الأطلسي مع اختلاف التسمية. حيث تُسمّى في الســـودان "الثوب" وتُسمى في موريتانيا وجنوب الجزائر والمغرب وليبيا وشمال مالي والنيجر "الملحفة".

وتساءلت: أيُعقل أن تكون موريتانية؟!

إن كانت كذلك، فما الذي أتى بها إلى مقهى في أحد أكثر أحياء دبي بورجوازية، في هذا الوقت بالذات؟

كانت القهوة والكتاب الأنيق والتركيز المفرط، والتكيّف مع الضوضاء الهادئة مؤشراتٍ جعلتني أستبعد كونها موريتانية؟

وكانت الملحفة اللازوردية، وطرفها المنسدل على يسارها، ونقوش خطوط الحنّاء الدارسة على كفّها اليسرى تؤكد أنها قدمت لتوّها في رحلة استغرقت اثنتي عشرة ساعة طيران.

قادني الفضول لأكون منها على مسافةٍ لا تزيد على أربعين سنتمتراً، وكان عطرها الفرنسي الهادئ يغالب رائحة الدخان السويدي المنبعث من بين أصابعي.

لم يكن الكتاب الذي جعلها لا تلاحظ قربي اللافت من كرسّيها سوى "رواية خيالية" لكاتب إنجليزي، نشرت في النصف الأول من القرن الماضي، تتحدّث عن فساد قادة الثورة السوفيتية، الراتعين في الجهل والغباء كحيواناتٍ في مزرعة.

كان عنوان الكتاب كافياً لتبرير انشغالها، فلن تجد إسقاطاً لمضمونه أكثر قبولاً من الزمان والمكان اللذين تجلس فيهما.

تقدمتُ بلطفٍ وقلت بإنجليزيةٍ حاولت جهدي أن لا تحمل لكنة تفضح أصلي، وأنا أضع يدي على الكرسي المقابل لها:

هل تسمحين...؟

تفضل..

لي بالجلوس؟

لا.

وعادت إلى مزرعتها، وعدت إلى حيرتي.

سحبت الكرسي بهدوء مفتعلٍ، وجلست إلى الطاولة المقابلة لها تماماً. طلبت قهوةً بحجم فنجانها. أشعلت سيجارة أخرى، واسترقت النظر إلى تقاسيم وجهٍ كان من الصنف الذي يوحي إليك أنك تعرف صاحبه منذ زمن بعيد.

مرّ نصف ساعةٍ و لم ترفع عينيها عن الكتاب، و لم ترتشف من قهوتها الباردة سوى رشفةٍ واحدة، و لم تنتبه لهاتفها الذي تضيء شاشته بين الحين الآخر.

تقدّمت إليها نادلة تحمل مغلّفاً يحوي الفاتورة، وتقدمت مني أخرى فأشرت إلى التي معها فأتتني، بينما كانت هي تخرج من حقيبة يدٍ جلديةٍ أنيقةٍ بطاقة ائتمان لتدفع..

طلبتُ من النادلة أن تخصم مبلغ فاتورتها، أرادت أن تستأذنها، فألمحت إليها أن لا داعي لذلك.

وضعت بطاقتها الصادرة عن بنك بريطاني في المغلّف وانتظرت عودة النادلة، ثم عادت إلى كتابها الذي لم يبقَ دون دفته اليمنى سوى صفحاتٍ قليلة.

- هل يمكن أن أسألكِ سؤالاً؟.. قلت بصوتٍ لا يخلو من خجل.

لا يبدو أنها سمعت ما قلت.. أو أنها فضّلت عدم الإجابة.

ارتشفت قليلاً من قهوتي الباردة، وسحبت نفساً من سيجارتي واستجمعت ما معي من جرأة لاقتحام خلوة فاتنة تتبتل في محراب القراءة لجورج أورويل على شاطئ دبي..

هل يمكن أن أسألكِ سؤالاً؟

وهل تراني في مؤتمر صحافي؟

كانت النبرة جافةً جداً. قالتها وهي تضم الكتاب وتدخله بتـــذمّرٍ إلى حقيبتها، نظرتْ إلى المغلّف، ثم أشارت بحنقٍ إلى النادلة مستعجلة..

وقفت مستعجلاً ووضعت بطاقةً تعريفيةً علـــى طاولتـــها، ثم عدت أدراجي وهي ترمقني بنظرةٍ مليئةٍ بالازدراء. فشـــاب هنـــدي الملامح بملابس رياضية وحذاء بيتي، يدخن بشراهة ويغلبه الفضـــول؛ قطعاً قد لا يكون من صنفها المفضّل من الرجال.

ألقت نظرةً على البطاقة الصغيرة المستطيلة؛ لم يكن بها ســـوى شعار شركة أميركية اتّخذت من دبـــي مقراً لفرعها التقني، ربما طلباً لليد العاملة الرخيصة، أو هرباً من الضـــرائب.. وتحـــت الشـــعار: المهندس الداه إطول عمرو.. مدير الأمن الإلكتروني.. ورقم هاتف، وبريد إلكتروني.

* * *

مرت أربع وعشرون ساعةً طويلة.. هزّ رقم محجوب هـــاتفي الموضوع على طاولةٍ بمقهى في مرسى دبـــي.

الداه يتكلم.. قلتها بإنجليزيةٍ فصيحة، وهي الجملة التي افتتح بها مكالماتي حين لا أعرف المتصل.

كان صوت دافئ يصل كأنه مختلس من الطرف الآخـــر مـــن العالم: ذا اللي كنت ليه اتسول عنو شنهو؟.. (باللهجة الموريتانيـــة: عما ذا كنت ستسأل)

دبـــي 2013

المشموم..

في هذا الوقت من الليل، وهذا الفصل من السنة، وعلى طول هذا الشارع الذي يحتضن ذكريات آلاف العشاق، وأنات مئات المشردين، أنتعل نظرة الناس إليّ، أتدثّر بقليل من الأمل، وأحمل هذا الطبق الذي كنا نأكل فيه قبل قليل ما اشتريناه أمس..

أراك تنظر إليّ باستغراب..!

أنصحك بتغيير زاوية نظرك، مثلاً؛ هل لك أن تعرف – أو على الأقل أن تخمّن – كم في هذه الباقة التي وُضعت على طاولتك من زهرة ياسمين؟

أعرف أنك لا تهتم كثيراً بعددها، وأفترض أنك لا تهتم إطلاقاً بالطريقة التي جمعتها بها، ولا كم من الوقت والجهد بذلت أمي، لأقف الآن على بعد ستة عشر سنتيمتراً منك، وأقدم لك باقة من الياسمين.

أعرف أيضاً أنك قد لا تقيم وزناً لرائحتها الزكيّة، بل قد تفضّل رائحة الدخان الأمريكي الفاخر الذي تداعب..

لست وحدك في ذلك؛ انظرْ مدى بصرك في هذا الشارع، تشهدْ كل طاولة في سلسلة المقاهي المتراصّة هذه، على مواظبتي.. بل على كرمي.

إنني أهدي هؤلاء المتسكّعين هنا، الهاربين من جحيم اللون الأحمر في الأخبار العاجلة، أو المصدومين من انهيار سعر الدولار، أو

المتألّمين من هجر حبيب، أو الباحثين عن ثمن رغيف... أهديهم فسحة أمل.. أو لحظة تأمل.

لستُ بارعاً في التسويق كما ترى، لا أستدرُ جيوبهم بالحديث عن فوائد المشموم، ولا أناقش معهم ثمنه.. بل على العكس، إن ربحي ممن يصدّني بانتهار أضعاف ربحي من هذا الدينار..

أسمع كل يوم مواعظهم عن الدراسة وعن اليونسيف وقانون العمل، لكنهم يجهلون أن ثلاث فتيات وبقية حياة أم رمّلتها ذات يوم في هذا الشارع رصاصة جنديٍّ مجهولٍ امتشق رشّاشه وأفرغه في صدور متجمهرين يخشون على أبنائهم مصيراً كمصيري، أن كل أولئك وأنا، نعيش من "المشموم".

هل تعرف قصة هذا "المشموم"..؟!

دعْني أحدّثك: في المساحة الصغيرة جداً شمال كوخ الصفيح الذي نأوي إليه أربعتنا كل مساء، ابتكرت أمي هذه الحرفة، تروي جنينتها الصغيرة بالماء الذي استُعمِل للغسيل؛ وعند الغروب، حين تنحني زهور الياسمين تعظيماً لكفاحنا، تقطف أمي ست عشرة زهرةً بلطفٍ كلّ مرة، تجمعها برفق حول اثني عشر عوداً رقيقاً من بقايا حصيرنا الذي جلبناه من الريف يوم حصل أبي على وظيفة فرّاش في بلدية تونس العاصمة، تفتل خيطاً رقيقاً من طرف ثوبها، تجمع كل ثمانٍ وعشرين زهرةً حول اثني عشر عوداً وتلف حولها الخيط عشر مرات، ثم توزعها بيننا؛ تعطيني ثماني وعشرين باقة ولأختي الوسطى اثنتي عشرة، ولأختي الكبرى عشرين وللصغرى عشراً.

تطلب مني أن أكتب لها في الورقة التي كانت كشف الراتب لآخر شهرٍ عمل فيه أبي، عدد الباقات التي أخذ كل منا، وأن

أجمعه، تفعل ذلك كل يوم، مما جعلني أوهمها بأني كتبته لكني لا أفعل، فالمجموع دائماً سبعون باقةً تماماً كما كانت علاوة الأبناء في كشف راتب أبي. تساءلت مرةً عن سرّ حرص أمي على هذا التوزيع، وحين كتبت الأعداد هكذا 28+12+10+20 عرفت أنه تاريخ وفاة أبي، خلال ثورة الياسمين. هل فهمت الآن أن هذا المشموم هو الوحيد الذي يجعلني وأخواتي وأمنا نتذكّر كل يوم أننا نوزّع الأمل على الناس في الشارع، الذي قُتل فيه أبونا من أجل أن ينعموا بهذه الجلسة..

هيه.. هيه.. هل ستدفع لي ديناراً أم آخذ باقتي؟

تونس 25-08-2011

هل أشرح لك؟..

كانت الشمس الموسكوفية متلفّعة بغيم داكن، والبروق تخطف الأبصار، والكل يترقّب القطرات الأولى ليفتح مطريّته، لا وقت عند أحد للتوقّف.. والمحظوظ من دخل النفق المخصص للراجلين قبل نزول المطر..

من الدرج المؤدي إلى النفق تدفّقنا أفواجاً.. لا أعرف لَمَ اعترضتني دون غيري.. كنت أنظر إلى هاتفي فهناك من ينتظرني، وعليّ الوصول بعد ربع ساعة..

بصوتٍ هادئ قالت: من فضلك خُذْ واحدة.

تجاوزتها معتبرا أنها تحدّث غيري، أو أن العرض عام، لكنها تقدمت خطوةً نحوي، وهي تعترض طريقي وأعادت بهدوء جملتها، وعيناها الغائرتان المشدودتان من طرفيهما تركّزان عليّ.

مستعجلاً ومتملصاً قلت لها: ليس الآن.

وقفت بحزم أمامي وقالت: أنت ذاهب إلى موعدٍ، لا بدّ أن تختار واحدة:

"هذه يمكن أن تهديها لحبيبتك إن كان هذا أول لقاء لكما. إنها مختلطة فيها ورود حمراء وبنفسج محفوف بالياسمين. ستكون معبّرةً عن صدق مشاعرك.

وهذه باقة حمراء خالصة ستثير حبيبتك، وتفيد في تجديد العهد بينكما، خاصةً إنْ كنت لاحظت فتوراً عاطفياً في أيامكما الأخيرة.

ولك أن تختار أيّ واحدةٍ من الباقات الأخرى، فهي جيـــدة في ذكرى عيد ميلاد إحدى صديقاتك مثلاً، لأنها متوازنة؛ لا تعبر عـــن الحب في بعده الثنائي، بقدر ما تعبر عن التقدير والوفاء..

أسعارها مناسبة، وأغلاها بمائتي روبل. أؤكد لك أني اقتطفتـــها جميعها صباح اليوم من حديقة بيتي التي اعتني بها بنفسي.. انظرْ مـــا تزال يدي ترشح، فقد انغرزت شوكة في إبهامي وأنا أقطفهـــا قبـــل ساعة من الآن.. يمكن أن تتنسّم شذاها وستتأكد أنها جديدة.. مـــا زالت تفوح.."

كان عليّ البحث عن وسيلةٍ أفهمها بها أنها ضيّعت ثلاث دقائق من وقتي، وأن كل الخيارات التي قُدمت ليست ضمن مفكرتي؛ فأنـــا لا حبيبة لي إطلاقاً، ولا تربطني علاقة صداقةٍ مع أحدٍ في هذه المدينة.

وأعياد الميلاد ليست من ثقافتي، وكل من أعرفهم وُلِدوا حسب الوثائق في يوم واحد، فلا يجازف أحد بتخليده، كما أن ذلك التاريخ الموجود في وثائقهم لا يعني لهم شيئا، لأنهم وُلدوا في يوم آخر.

وأكثر من ذلك، أني لا أستطيع الوقوف على حقيقة ما قالت، فلا فرق عندي بين ما في سلّتها من باقات.

فبحكم النشأة لم أتعوّد تبادل الورود في المناسبات العامة، وكل ما أعرفه منها نوارٌ أصفر يكسو الطلح، ويُخصّص غذاءً لصغار الخراف.

والأشجار عندنا -عكس العالم كله- تينع في موسم الخريف.

لا أعرف إنْ كانت العجوز - التي تكبر جدتي قطعاً- قالـــت كل ذلك، أم أني توهمته من حركات يديها المرتعشتين، فأنا لا أفهـــم

الروسية حين يتحدثها الموسكوفيون بطلاقة، فكيف ولكنتها الطاجيكية حوّلت حديثها شريطاً يُسمع مقلوباً.

خلال شرحها المستفيض كنت أتأمّل ملامحها، فقد أخذتني بعيداً، إلى ربوع نشأتي الأولى. فسود الأيام حفرت في وجهها أخاديد ذكّرتني بحال قيعانٍ أعرفها في هذا الفصل بالذات من السنة، حين تكون شقوقها فاغرة، تنتظر بلهفةٍ أول الغيث.

وعلى رأسها لفّت منديلاً أبيض، جمعت به شتات ما أبقت لها الأيام من شعرها المستسلم لقدر لونه الأخير، وكذلك من هنّ في مثل عمرها من عجائز بلدي – على قلّتهن – ما زلن محافظاتٍ على تلك الخرقة السوداء التي تستر الشعر حال سقوط الملحفة عنه، وكثيراً ما كانت موضوعاً لأعذب أشعار الغزل حيث تسمى "الملوى".

رفعت العجوز وجهها المكفهر إليّ وأنا مستغرق في تأملاتي بعيداً عن رطانتها، فأدركت بمرارةٍ أنها ضيّعت جهداً دون طائل.

قلت بصعوبةٍ كلمةً سمعتهم يقولونها في الوداع ومعناها "أراك قريباً"، وتركتها وهي تحاول صعود السلّم بحثاً عمّن يستوعب معاني ما تحمل، أو يدرك دلالات ما تقول.

مسرعاً بخطواتي لتعويض وقتي الضائع، انتصب في طريقي عند فتحة النفق المؤدية إلى محطة القطار السريع، رجل أربعيني.. أجبرتني قامته الفارعة وبذلته الأنيقة جداً على التوقّف.

كان يسند كماناً إلى قلبه، وتنساب بين أنامله نغمات باكية تختزل حزناً باذخاً، وكانت عيناه الزرقاوان مغرورقتين، تحول فيهما دمعة بلورية شفافة انحدرت على خدّه بتفاعلٍ غريبٍ راسمةً خطاً مستقيماً استقامة قامته...

التفت خلفي لأسأل العجوز إن كان في سلّتها ما يعبّـــر عـــن التعاطف مع المحزون، لكنها اختفت بين مئات المسرعين للاحتمـــاء بالنفق من وابلٍ بدا أكثر فهماً منّا جميعاً..

موسكو.. 2009

النداء الأخير..

وحده لم يكترث بالنداءات المتلاحقة لموظفي الطيران، ربما لأنه تعوّد عليها وصار يميِّز بعض الأصوات في عددٍ من المطارات الدولية. وفيما يتدافع العشرات من ذوي السحنات والألسنة المختلفة، كانت عينه على الشاشة العملاقة المنصوبة على المدخل يبحث عن أوان وصول طائرةٍ من مونتريال الكندية، لم يظهر الوقت بعد، وقد لا يظهر مطلقاً.

تجلس مسنّة أوروبية أضناها الوقوف بجانبه، وتسأله بلغة إنجليزية فصيحة:

- متى تقلع طائرتك؟
- الساعة الرابعة مساء.
- ولِمَ تنتظر هنا، أليس لديك حجز في فندق؟
- بلى لديّ، ولكني أستمتع بالجلوس هنا.
- هل تنتظر أحداً؟
- لا.
- هل تودِّع أحداً؟
- لا.

أشاحت بوجهها عنه وقد أزعجتها إجاباته المقتضبة
ألقى نظرة على اللوحة واستغرق في مراجعة دفتر ملاحظاته..

"قبل عام كنت هنا في هذه القاعة أنتظر النداء الأخير قبل الإقلاع ألقت عليّ التحية ملاك أسود – كثيراً ما يضحك حين يقرأ هذه الملاحظة في يومياته حتى إنه يعود إليها كلما رغب في تغيير مزاجه؛ ربما يكون أول من جاء بهذا الوصف– كان فستانها الأبيض المنسدل إلى قدميها وابتسامتها الناصعة هما كل ما يمكن أن تميِّزه حين تُطفأ الأنوار.

كانت خطوط الحنة الموريتانية المتقنة تكافح جاهدة لإثبات وجودها على ظاهر المعصم، سألتني:

- إلى أين تتّجه؟
- إلى مونتريال.
- واو.. أنا أيضاً إلى مونتريال. سافرت اليوم أول مرة بالطائرة. يقولون إن الرحلة ستستغرق عشر ساعات من مطار شارل ديغول. حدثوني عن طائرة عملاقةٍ تُتاح فيها فرصة مشاهدة التلفزيون وإجراء اتصالات هاتفية..

آآخ.. هل تعلم؟! لقد قُطِعت نياط قلبي اليوم حين قالت المضيفة إن علينا إغلاق هواتفنا. نسيت هاتفي مفتوحاً، فجأةً مرت بي المضيفة فتذكّرته. خفت أن يسجنوني. لا أحفظ رقم أحدٍ في فرنسا، و لم أغادر بلدتي النائية قبل أمس. جئت ساعاتٍ قبل موعد الطائرة،.. هل تستمع إليّ؟

كنت مشدوها أدرس تضاريس جديدة لم أعرفها أثناء سنوات خبرتي الطويلة في مجال الجغرافيا..

- هل تسمعني؟
- نعم.. نعم.. لا شك أنك ستدهشين حين تصلين إلى كندا.

- أكثر ما يريعني ما سمعته عن برد كندا. يقولون إن أحد أقربائي كان ينظّف غرفته فسكب ماء تحت الباب، وخلال دقائق لم يستطع فتح الباب فقد تجمّد الماء.

... هل يمكن أن تصف لي الميترو؟ يقولون إنه يسير تحت الأرض، لم أستطع تخيّل ذلك... أنا لا أعرف استخدام الشوكة والسكين. كان الراكب الفرنسي المتعجرف بجانبي ينظر إليَّ ويبتسم. لقد كرهته. رمقني باستحقار وقال: "ليس بهذه الطريقة، لكنه لم يشرح لي كيف أتصرف... لست معقدة من ثقافتي، وسأصر على أن آكل بيدي في أرقى مطاعم تورنتو ومونتريال، سيضحكون ولكني لن أكترث...

النداء الأخير قبل الإقلاع إلى جميع الركاب المتوجِّهين إلى مونتريال...

- هل هذه طائرتنا؟.. إن كانت هي فلنقمْ بسرعة، أريد أن أجد مكاناً في مؤخرة الطائرة، يقولون إن الذين يجلسون في المقاعد الخلفية كثيراً ما ينجون في حوادث الطيران. لكن هيا بسرعة..

أمسكت طرف سترتي.. ثم قالت:

- لن أفارقك أبدا حتى أصل إلى المطار.
- ولكن هل ستفارقينني بعد ذلك؟
- لدي تذكرة ذهاب وعودة، إن لم تعجبني مونتريال أو لم أستطع التكيّف معها، سأعود في مثل هذا اليوم من السنة المقبلة.. يقول زوجي إنها ستعجبني، لا أعرف إن كان صادقاً، أنا أصلاً لا أعرفه، قد لا أستطيع تمييزه من بين

المستقبلين. لقد زوّجني أبـــي منه لأنه ابن عمي. رأيـــت صوره عند أخته، ليس وسيماً، لكنها تقول إنه يعمـــل في شركة، ربما يكون نادلاً في مطعـــم. يتكـــتّم الشـــباب في الخارج – دائماً– على حقيقة وظائفهم.

- لكن هيّا، إنها طائرتنا..
- لا.. لست مسافراً على الخطوط الجوية نفسها..
- لا.. لا.. لا تقل ذلك.. –انهارت بين يـــدي–.. لم أكـــد أصدِّق أني وجدت منقذاً.. لا، لا.
- الأمر سهل ليس أكثر صعوبةً من رحلتكِ السابقة.

النداء الأخير قبل الإقلاع.. السيدة فاطمة...

- إنه اسمي، لقد تأخرت، أرجوك، أرني الطريق. رافقـــني إلى البوابة. أكتب لي رقم هاتفك في كندا، هنا علـــى هـــذه الورقة، انا لا أعرف الكتابة، الهاتف قـــد يضـــيع مـــني.. أرجوك ساعدني...

* * *

بدأ الجميع يأخذون أماكنهم على متن الطائرة. ألقي نظرة مـــن النافذة على الطائرة المجاورة التي وصلت للتو. كان ملاك أسود ينزل من السلم، متأنّقاً، يحمل على كتفه الأيسر حقيبةً جلديـــةً ويضـــع نظارته.. بدا واثقاً وهو يوزِّع نظراته على الجانبين.. قبل أن يغيب في سيلٍ من الركاب المستعجلين الوصول.

المنامة – 2010

الكرسيّ المحجوز..

بلهفة من لم يَرَ بريده الإلكتروني منذ مدة.. فتحتُ باب المصعد، وبارتباك من يسمع كلمة "أحبك" أول مرة، ضغطتُ الزر الثالث، وبعد لأي انفتح الباب بهدوء شديد، كمن يخاف أن يوقظ مصاباً بالأرق.

ألقيتُ نظرةً سريعةً على محتويات الشقة، التي أخطأت مفتاحها أربع مرات.. لم يتحرك شيء من مكانه، مزهرية على الطاولة، لوحة زيتية لوجهٍ نصف مبتسم، يشع بنظرة مدروسة،.. جهاز كومبيوتر في وضع سبات، وبقية ما في الصالة التي لم يغير ترتيبها منذ شهرين..

أمام خزانة الملابس تبعثرت جملة أسئلة؛ أي قميص؟ أي سروال؟ أي ربطة عنق؟ اي الألوان تراها تحب؟

هي فنانة أوتيت ملكوت الذوق الرفيع، أخشى أن أقابلها بقميصٍ لا يناسب مزاجها، هل تفضل الملابس الرسمية، أم الملابس الصيفية؟.. الجو معتدل وكلها تناسبني.. أتلمّس ذقني.. لم تُحلَق منذ شهرين.. سؤال آخر:

أستُعجَب بي ملتحياً أم حليقاً..؟

اهتزّ الهاتف في جيبي؛ سبع دقائق قبل الموعد، ولكن ماذا ألبس؟!

أمرّر يدي على القمصان، آخذ قميصا أبيض قصير الذراعين.. وسروالاً أسود.. رسمياً كثيراً.. أرجعته، أخذت آخر أزرق.. لا يناسب القميص..

اهتزّ الهاتف من جديد، ست دقائق قبل الموعد... لماذا أبحث عن ذوقها؟

اخترت قميصاً أزرق سماوياً، وبذلةً رماديةً فاتحة؛ رششت أو اثنتين من عطري المفضل،.. لا وقت لتشذيب اللحية، لأخرج بطبيعتي.. وعلى مرآة المصعد عقدت ربطة العنق بشكلٍ مثلث، مرّرت منديلاً على حذائي..

بكلمات الترحيب نفسها التي حفظتها منذ شهرين دعتني النادلة إلى الجلوس، ومع أنها تعرفني لا أدخن، فقد رددت نفس النص القديم؛ هذا الجانب للمدخنين، وهذا لغير المدخنين، وهذه طاولات للجلسات المختلطة،..

اخترت طاولة من المجموعة الأخيرة، تطل على جانب حديقة يفوح منها أريج الزهور العبقة، ورائحة الفودكا..

لدينا قائمة مشروبات صيفية استُحْدِثت اليوم فيها عصائر فواكه طازجة، وهذه القائمة التقليدية، قالت النادلة وهي تمسك قلمها كصحافي في ندوةٍ لا يفهم كلام ضيوفها..

شاي أخضر بالياسمين مثلج، قطعة حلوى... وماء... لم يكن الجو بتلك الحرارة، مع ذلك كان حلقي يحترق..

أنظار مَنْ في المقهى تتحوّل فجأة إلى المدخل الشرقي.. قامة فارعة، شعر أشقر منسدل، ووجه بتعابير محايدة،.. تتقدم خطوتين، تتوقف لسماع محاضرة النادلة لمدة ثلاثين ثانية.. تجلس إلى الطاولة المحاذية يساراً لطاولتي..

أرتشف قليلاً من الشاي.. أزيد السكر قليلاً.. أفتح قنينة الماء.. ثم الصفحة الخامسة والسبعين من مجموعة "الليل الأخير".. يتسـرّب صوت ناغم إلى مسامعي.. كانت تلتفت إليّ بزاوية خمس وثمـانين درجة،.. نفضتْ سيجارتها بلباقة، أخذتْ نَفَساً قصيراً وقالتْ:

- مساء الخير..

لم يكن الوقت مساء، نظرت إلى ساعتي وقلت: مرحبا

- معذرة على مقاطعتك.. هل اشتريته من هنـا..؟ صـوت مهذب ونظرة حارقة من عينين عسليتين.. وأنامل تكـبس بود عقب سيجارة لإخمادها..
- تقصدين الكتاب..؟
- أجل..
- لا
- قرأته قبل ثلاث سنوات.. اشتريته خلال رحلة قـادتني إلى جزيرة جربة في تونس.. أفكاره جميلة، ولغته قوية، وجدت صعوبة في فهمه من المرة الأولى..
- يحدث ذلك أحياناً.. وأعدت نظري إلى الكتاب.
- يبدو بيننا اهتمام مشترك.. قالتها وهي تستخرج سـيجارةً جديدة، وتنظر إليّ برموشٍ ناعسةٍ مغرية..
- ربما
- هل يمكن أن أقترب أو تقترب أكثر، فكلامك لا يصـلني بوضوح..
- ماذا تقصدين؟
- إن كان لا يضايقك أن أجلس على الكرسي المقابل لك..؟

- عرض مغرٍ.. همست لنفسي، وأنا أجول ببصري في المقهى الذي أحسسته مندهشا لهذا التقارب المفاجئ..

- هل تنتظر أحداً؟

بالرغم من جمالها الأخّاذ فقد ضايقني كسرها صمتي.. وإخراجي من وحدتي.. من رحلتي إلى أغوار نفسي.. من متعة الحديث الصامت الذي دار قبل جلوسها..

- نعم.. هل في ذلك ما يزعجك؟... لم يكن صوتي ودوداً بما فيه الكفاية.

- ليس بالضرورة.. خشيت فقط أن لا يأتي مثل أمس.. غريب..!

لم أر وجهها من قبل، و لم تكن أمس هنا..: من قال إني كنت أنتظر أحداً يوم أمس؟

- ليس الأمس وحده،.. فقد أثار فضولي اختيارك الطاولة نفسها وفي الموعد نفسه منذ أيام..

أخذت نفسا عميقا من سيجارتها.. سرّبته بهدوء ثم قالت:

- ثلاثة أيام.. أليس كذلك..؟

- هل أعرف الغاية من مراقبتي؟

- أنا أعمل في محل بيع العطور المقابل للمقهى.. كنت أراك من الزجاج..

تزحزت قليلاً عن كرسِّيها، وهي تشير إلى النادلة أن تضيف حسابي إلى حسابها.. ألا تريد أن أجلس معك..؟

- لم أتعوّد على ذلك..

- على ماذا؟

- على أن تدفع عني امرأة لا أعرفها..

- لم تبدِ رغبةً في ذلك..
- ربما لم توجد..

آخذ الفاتورة من يد النادلة.. شكرا لكِ.. ربما في المرة القادمة..

- هل ستكون هناك مرة قادمة..
- لا أعرف.
- متى يأتي من تنتظر؟

أحدّق إليها بنظرةٍ مرتابة، مستغربةٍ ومنزعجة..

تستطرد وهي تنظر إلى سيجارتها: هناك أماكن جميلة كثيرة.. واليوم إجازة..

أتأكد من صفحة الكتاب، أطبقه على صورة لوجه نصف مبتسم..: ربما حين تأتي نمر بك لشراء عطر يعجبها..

- بل لأهديه لكما.. هل ستأتي اليوم..؟ قالتها بمزيج من الجذل واليأس

أعتدل واقفاً.. أدخل بطاقة الإئتمان في محفظتي.. ترفع عينيها بنظرة ماسحةٍ.. وخيط دخان يغادر بكسل شفتيها الحمراوين..

- يوم الاثنين..
- ولكن اليوم سبت.. قالتها بصوتٍ مرتفعٍ قليلاً، وبنبرة مستغربة مغتاظة.. لماذا انتظرتها إذا..؟!

أتجاوزها بخطوتين، وبابتسامة مذيع نشرة الثالثة فجراً، أقول: لأحجز الكرسي المناسب..

- ولكن... أنا... لَمَ أنت... لحظة من فضلك... انتظر... خذ رقم... هـ.. يـ.. ـه..

موسكو.. 2010

ورقة عائمة..

تضرب الأمواج الباردة جداً قدميّ، رغم وقوفي على بعد ثلاثة أمتار من الشاطئ، أتحسّس حقيبة الظهر الصغيرة، أشدّها بقوةٍ بحثاً عن حرارة اختزنتها من ملامستها محرك سيارة الأجرة المتهالكة التي ما زال هديرها تردّد الكثبان أصداءه..

بدا كل من حولي منشغلاً بنفسه؛ سيدة في الثلاثين تهدهد طفلاً، تتمتم بكلمات غير مفهومة،.. زنجي يلهو بأعقاب سجائره المتراكمة، طفل يبني أكواخاً من الرمال المبللة، اعتماداً على حجم قدمه الصغيرة.. فتزيحها الموجة ويعيد بناءها من جديد.. وشاب قمحي اللون يعاند البحر بالكتابة على الرمال..

حاولت استراق النظر إليه لمعرفة مضامين رسائله المرتبكة، غير أن الخطوط المتداخلة جعلتني أستسلم لفشلي.. فهي لغة لم أدرسها في مراحل تعليمي..

أوحى مشهد الجميع برتابةٍ مقيتةٍ، ورغبةٍ جامحةٍ في مناقشة أمرٍ ما مع أحد المخلصين..

كان الفراغ هائلاً، ومسحة حزن تغشى جانب السماء التي بدت غير راضيةٍ عن ما أفعله، فجلجل عن بعد رعد غاضب، وتسرّبت السحب الخفيفة من أعماق البحر مستعجلة الالتحاق باجتماع تقرّر عقده بعيداً عن أعين القابعين في منازلهم المترفة..

تدريجاً.. فقدت الحقيبة حرارتها، فراودتني رغبة في إعادة ترتيب محتوياتها مع أني استغرقت في ذلك أكثر من ثلاث ساعات لانتقاء ما يستحق أن تحتويه؛ كتيب صغير من حصن المسلم، مسواك من الأراك طري، اضطررت لكسر جزء منه كي يلائم حجم الحقيبة، مفتاح لقفل صيني قديم، وقلم من علامة بيك ورزمة من الأوراق اقتطعتها من أحد دفاتري البالية، وسروالٍ جينز ضيِّق، وأشياء تافهة لا أعرف لَمَ اخترتها.. ووقعت عيني على صورة..

استللتها بلهفة، وكأني أراها للمرة الأولى، كانت متشققةً أثّرت فيها الأيادي الخشنة والسنون..

كانت لمريم وهي تسند ظهرها إلى شجيرة سدرٍ، تشبك أناملها بقوة، مالئة الفراغ بين أصابع يدٍ بأصابع الأخرى وقدٍ أحاطت بهما ركبتها اليمنى في جلسة تأمّلٍ نادرة.

آثار حناء تطلو الأظفار الرقيقة، وملحفتها المشدودة بحزم على رأسها -الذي لا أعرف لون شعره- تنساب برخاء على ذراعيها، حائلة بذلك دون إظهار تفاصيل قدها.

وتنتصب خلفها عن بعد نخلة تتدلى عراجينها بثقة، وبين السدرة والنخلة اخترقت خيوط خفيفة لشمس الغروب...

كانت الصورة بيضاء وسوداء ما جعل الألوان غير بيِّنة، وإنْ كنت بحدسي توقّعت أن تكون الملحفة زرقاء فاتحة، تتناثر عليها نقاط بيض وبنفسجية وزرقاء غامقة..

كان الوجه القمري يشع بنورٍ خافت ينتصب في وسطه الأنف المترفِّع قليلاً بتعالٍ، والعينان النجلاوان تستظلان بأهداب كثيفة

وحاجبين مقوسين. والشفتان اللمياوان ترسمان ابتسامةً موناليزيةً غامضة، تتقاطع في نقطة غير محدّدة مع النظرة الواثقة..

يوهم كل ذلك المتمعن في الصورة أنها تريد الهمس بسرٍّ دفين حرصت على كتمانه سنين...

ويتربّع في الزاوية اليمنى السفلى، تاريخ التقاط الصورة الذي مضى عليه أكثر من عشر سنين.

عادة سيئة درج عليها قدماء المصوِّرين، إنها تحرمك متعة اختيار التاريخ الذي تريد، فالناس يرغبون دائماً في اختلاق تواريخ لذكرياتهم – مهما كانت– تناسب الموقف الآني.

ينفث الزنجي من جديد دخان سيجارته رخيصة الثمن، ويتعالى صراخ الطفل، فترفع المرأة صوتها بالذكر في أذنه وتهزه بهدوء. يعود بي كل ذلك إلى لحظتي..

يرفع الزنجي ساعده ويؤخر قليلاً قميصه الشتوي الطويل، فتبرز ساعة رقمية عتيقة، ويغمغم بلغة فرنسية رديئة: "مرت ثلاث ساعات".. ويركل برجله قنينة ماء معدني فارغة فتحلق بعيداً ثم تسقط بجنب الطفل المصر على تشييد أكواخه..

يلوّح الرجل قمحي اللون بقميصه في إشارة استنفار أو استغاثة، فيتدافع الجميع نحو زورق يحمل جانبه الموالي لنا عبارة أجنبية فهمت لاحقاً أنها تعني "تحقّق حلمي" باللغة الأسبانية، تداخلت مع بسملةٍ كُتِبت بخطٍّ سيئ وبلونٍ أخضر.. كان صوت المحرك مزعجاً.. والشفاه تتحرك بتناغمٍ منتظم..

وعلى بعد ثلاثة أمتار من الشاطئ كانت ورقة بيضاء مستطيلة تتقاذفها الأمواج.. لترميها على أطلال كوخٍ بناه صبي بمقاس قدمه

الصغيرة.. تبين من شقوقها أنها صورة مريم..

أصرخ: انتظر.. انتظر.. رجاء..

يتطاير لعاب المرأة وهي تدفن بحنانٍ لافتٍ رأس طفلٍ في صدرها.. ويهزج الزنجي بصوتٍ شجيٍّ يغمر بروحانيته الزورق المبتعد.. وتتلاشى تلك الورقة في المدى...

النعمة – موريتانيا 2007

انتظار.. مع كأس عصير..

وحيداً مع كأس العصير جلست، نظرت إلى الأفق السحيق، أبحث عن إشارة تدلني إلى مسارٍ سالك إليك، عن لغةٍ تكون أكثر قدرةً على استيعاب ما أريد قوله، أعدت النظر كرّتين، أتأمل أغوار التاريخ الحديث، أحاول سبر تفاصيله، تتداخل الأجزاء، تتشابه المكونات، أنظر إلى كأس العصير، أحسو قليلاً... ثم أتنهّد..

تتساقط أوراق شجرة الصفصاف التي أجلس تحت ظلها الوارف، كأوراق ذكريات قديمةٍ لعاشقٍ بائس،... ليس في أرضك صفصاف، لم نلتقِ يوماً تحت صفصافة، لكن ظل الشجر كان يوحي إليّ بشيء عنك، شيء يتعلق بكِ، هناك علاقة ما بينك وبين ظل الشجر، إنه يغادر بسرعة مثلك، وكثيراً ما لا يستمتع به إلا النائي أكثر...

أحاول تناول القلم، أدير ظهري للإحباط، أستنشق قليلاً من الأمل، أنظر إلى عقارب ساعتي وهي تركض إلى المجهول، تجر وراءها عنوةً عمري، فينقاد لها استسلاماً...

ارتشف قليلاً من العصير، وأنتظر...

للعصير لون وردي كوجنتيك حين يغلب عليكِ الحياء، كان مزيجاً من الموز والتفاح والفراولة، تداخلت عناصره وانصهرت، كما تنصهر أرواح العاشقين

نظرتُ إليه، تخيّلتكِ هنا وأنت تحتسين كأس عصير، تتأملين تقاسيم وجهٍ أضناه حبّك، عيناه غائرتان من طول التأمل فيك...

وأنا أحمل في يدي قلم رصاص، أحاول أن أرسم على صفحات أملي الضئيل ملامح حلمٍ عشتُ له، عشتُ به... مستغرقاً في تفكيري، شارداً أتأمل صمتك الناطق، ينبهني متسوِّل في ساحة الثورة، أجهده الزمن، يتكلّم لغةً ليست لغتكِ، فأدرك أنك لم تحضري...

انظر إلى ساعتي، أحسها تزداد تسارعاً، أحتسي قليلاً من العصير، وأنظر يسرة...

أراكِ في كل الوجوه، في الحمائم التي تحط بين أرجل المارة، في تداخل ألوان شرائط تزيين الشوارع لاستقبال الرئيس... أحسك في كسوف الزهرة وهي تودِّع الشمس منحنيةً كبوذيةٍ متديِّنة...

ولكن لماذا أتوقّع حضورك؟!!

أنت لم تجلسي معي يوماً في مقهى، لا يوجد هناك ساحة عامة نلتقي فيها... فلمَ أنتظر هنا؟...

يرن الهاتف في جيبي، توقّعت أن تكوني أنتِ، فتحت الخط دون أن أعرف هوية المتصل، صوت امرأةٍ مهذبةٍ:

- سمير... سمير أنا أنتظرك...
- عفواً سيدتي الرقم خاطئ. أنا لست سميراً...
- معذرة... أنا آسفة
- لا مشكلة... وتلاشى الصوت...

ماذا لو كنتِ أنتِ، ماذا لو كنتِ على علمٍ أني أنتظرك في أجمل ساحةٍ في عنّابة. ما يضيرك لو أرسلتِ رسالةً هاتفيةً قصيرة، من كلمتين فقط: انتظريني هناك... أنا قادمة...

أحسو من كأس العصير، أنظر إلى ساعتي، مرت ساعة وأنا هنا، مرت ساعة وأنا أنتظرك، أتساءل أين أنتِ الآن؟...

تُراكِ تقلبين صفحات ذكرياتٍ، ممزقٍ بعضها، وبعضها تلاشت أحرفه لطول العهد... أم أنكِ لم تحتفظي يوماً بورقة، أعرفك... كنت تكرهين الذكريات... تعيشين كل يوم بيومه...

ويسحب النادل الكأس، يمسح الطاولة بلطف، يقول: هنيئا، ينظر إليّ بشفقة وكأنه يواسيني، لأن من انتظرته لم يأتِ...

وبقيت وحدي أنتظر أمام كرسِّيك الشاغر. كانت معي كأسي لكن النادل أخذها.

عنابة – الجزائر 2005

لو جئت أمس..

بعد ازدحام طويل على شباك المكتبة، أعطاني الموزّع الكتاب الذي طلبت. لم يسألني عن بطاقتي، كان شارداً، وبين الفينة والأخرى يختلس النظر إلى شيء ما على طاولته، يبدو وردة بلاستيكية أو ما شابه، والطلبة في ازدحام كبير عليه.. لا يبدو مبالياً بهم..

دخلت قاعة المطالعة، جلت ببصري فيها، كل الطاولات مشغولة، أعدت النظرة متفحِّصاً كلّ طاولةٍ على حِدَة.. على كل واحدة يجلس فتى وفتاة، أغلب الفتيات يرتدين ملابس وردية أو زهرية أو حمراء، وحتى الفتيان متأنقون..

على بعض الطاولات ورود لا أعرف أنواعها.. أنا أحب الورود.. أحبّها كلها، تمثِّل لي الدفء والحب والحنان، لكني لا أعرف أصنافها، لم ألمس وردة قبل العشرين من عمري.

في ركنٍ قصيٍّ من الزاوية الشمالية الغربية منضدة صغيرة شاغرة منتصبة في صمت بين كرسيين صغيرين ينظران إليها كأنهما يغاران من بقية الكراسي.. اتجهت صوبهما، وضعت حقيبتي الكسلى على أحدهما وجلست على الآخر، نظر الكلّ إلي، ربما أنا الوحيد الذي لم أبالغ في التأنق هذا الصباح، أحب أن أكون على طبيعتي، وأكره المبالغة في التأنق.. بدأت أتصفح الفهرس، ثم رفعت رأسي...

كانت تجول ببصرها في القاعة كأنها تبحث عن شخصٍ، أو ربما عن كرسيٍّ شاغر... بدت قويمة القد، شعرها الحريري الأسود مسترسل على كتفيها، لمياء، لا تستعمل محمر الشفاه، بعينيها النجلاوين تجول في القاعة، تقابلتا مع عيني، ابتسمت عن درٍّ تلألأ نظمه، كاد يخطف بصري، أسرعت الخطى مقبلةً نحوي، كأنها وجدت ما كانت تبحث عنه.. خجلت من إمعان النظر إليها.. شعور كثير ما ينتابني حين تتقابل عيني مع عيني امرأة حسناء...

أعدت النظر في فهرس الكتاب.. عبق لم أتنسّم أطيب منه في حياتي ملأ أنفاسي، استنشقته بإمعان، وكأني أريد التزوّد منه في وجود سحب الدخان التي تغطي قاعة المطالعة، بابتسامة كفلق الصبح قالت: صباح الخير.

- صباح البشر يا وجه البشر..

مدت يدها بلطفٍ بالغ لمصافحتي، نظرت إليها وكأني أريد أن أقول شيئا..

أرجعت بهدوء يدها قائلة:

- .. أنا آسفة.. هل يمكن أن أزعجك بالجلوس؟
- تزعجينني!... بالعكس هذا من دواعي سروري، شرفتِ المكان. وأزحت حقيبتي عن الكرسي ووضعتها بجانبي.

نظرت إليها وأحسست بشعور غريب. ساحرة هي نظراتها، تسارع نبض قلبي، وكذلك حدث معها، تسارعت أنفاسها.. بضع ثوانٍ والصمت اللذيذ يخيِّم على المنضدة الصغيرة، وعبق عطرها الفوّاح يغمر أنفاسي ويدها اليسرى لا تزال خلف ظهرها تخبئ فيها شيئاً ما... فتحنا فاهانا معاً.. كأننا نفكر بدماغٍ واحد.. ضحكنا قليلاً..

- تفضلي هل تودين قول شيء؟

تلعثمت قليلاً ثم استرسلت..

- نعم هل لي أن أسألك سؤالاً شخصياً؟
- بكل سرور
- هل تشعر بالزمن؟
- لم أفهم.. ماذا تقصدين؟
- أعني هل لبعض الأيام، أو بالأحرى لبعض التواريخ قيمة معنوية بالنسبة إليك؟
- بالتأكيد.. هناك تواريخ تبقى في الذاكرة.
- مثل ماذا؟
- عيد ميلادي... يوم غادرت بلدي للمرة الأولى.. تواريخ أخرى كثيرة..
- ماذا يعني لك تاريخ اليوم؟
- لي شخصياً؟
- نعم، لك شخصياً.
- لا أذكر.
- لا شيء؟.. حادثة.. حدث... مناسبة؟
- آه.. اليوم ذكرى اغتيال..
- أوه.. لا.. دعنا من المآسي.. أقصد ذكرى سارة.. هل أهديت أحداً ما وردةً في هذا اليوم أو هديةً أو شيئاً من هذا القبيل؟
- سأتذكر.. آه.. نعم في مثل هذا اليوم من العام قبل الماضي اشتريت باقة من الورد لأهديها لزميلي بمناسبة مناقشته رسالة الماجستير.

- ألا تذكر شيئاً آخر؟
- تأملت قميصها الوردي، وشعرها المسترسل على شالها الأحمر، وهي تنكشه بأناملها الحريرية، شردت.. تهت في هذا الجمال الباهر،.. نبهتني بقولها:
- على العموم هذه لك.. ووضعت على المنضدة الصغيرة علبةً مغلفةً مربوطةً بخيطٍ أحمر وفوقها وردة ندية.
- لي أنا؟! أنا.. لكن.. بأي مناسبة؟.. لماذا كلّفت نفسك..؟!
- ستعرف حين تفتحها.. ولكن لا تفتحها الآن، حتى تعود إلى منزلك وتكون وحدك، عدني بذلك..
- أعدك.. أشكرك.. أنا ممتن لك... هذا يوم لن أنساه.
- تنهض.. يفوح عطرها العذب... استنشقه بإمعان لافت...
- إلى أين؟ اجلسي لم تمضِ إلا دقائق..
- أنا مستعجلة.. جئت فقط من أجلك.. بحثت عنك في الساحة، لم أجدك.. رجّحت أن تكون في المكتبة..
- ابتسمت، رمقتني بنظرةٍ آسرة، وبشفتين مرتعشتين قالت: إلى اللقاء..
- شيّعتها بنظري وأنا تائه، أرمق قدّها الساحر، وشعرها المسترسل على كتفيها.. حتى اختفت خلف سحب دخان السجائر التي تغطي قاعة المطالعة...
- نظرت إلى العلبة.. لماذا تهديني علبة؟
- أنا أكره العلب... أمقت أي شيء معلّب، الأفكار المعلّبة.. السياسات المعلّبة.. حتى الأرز المعلّب أكرهه. صاحب

الدكان المجاور صار يعرف ذلك وأصبح يزن لي من الكيس مباشرة.. والحب المعلب أيضاً أكرهه، أحس أن التعليب يفقد الشيء نكهته.. أمسكت طرف الخيط الأحمر.. تذكّرت.. وعدتها أن لا أفتحها حتى أعود إلى غرفتي.. سأعود حالاً..

- ولكن لماذا أنا دون غيري...؟ أنا لست وسيماً، لست متأنقاً، لست دميماً جداً، ولكني أيضاً لست وسيماً، أنا أعرف ذلك، لا أعوِّل كثيراً على شكلي.. لماذا تجاوزتْ كل الفتيان وقصدتني؟.. ماذا تحوي هذه الهدية؟..
- أنا لا أحبها.. لا أكرهها، لكني لا أحبها، فكّرت مرة في مفاتحتها... ولكن ما لبثتُ أن غيرتُ رأيي.. من الصعب أن ترتبط بأجنبية... ولكن هذه بداية عامي الرابع معها، لم تحدثني مرة عن الحب، أذكر أنها كانت تسألني عن عادات الزواج في بلدي، ولكن محض فضول...
- أيمكن أن تكون مغرمةً بي..؟ لماذا لم تصرح بذلك طيلة ثلاثة أعوام؟
- ربما تكون فكرة أخرى.. لماذا ينصرف ذهني دائماً إلى الحب؟
- أحكمت إغلاق غرفتي، استلقيت على سريري بإعياء.. تذكّرت الهدية، فتحت العلبة، ظرف بداخلها، فتحته، به هدية على شكل كتاب، حين تفتح دفتيه ينطق بفصاحة بالغة: Happy Valantine's day... Happy Valantine's day.. وحين تغلق الكتاب يصمت، ومع الهدية ورقة صغيرة، مكتوب عليها بخط رائع "اليوم أعلنت عليك

الحب".. احتضنت العلبة، قبّلتها... نعم قبّلتها.. واستنشقت عبقاً انبعث من الورقة الصغيرة.. وبت أحتضنها...

- في الصباح دخلت أقرب محل لبيع الهدايا، اخترت منه هديةً رائعة، غالية الثمن، طلبت تغليفها... غلّفها صاحب المحل ببراعة، كأنه يقرأ أفكاري.. استوقفت سيارة أجرة، طلبت إيصالي إلى الجامعة، وضعت هديتي على مقدمة السيارة، بجانب وردةٍ ذابلةٍ كأنها قُطِفت بالأمس..
- دخلت الجامعة.. نساء التنظيف يجمعن أكوام القمامة، كلها من بقايا أشرطة حمراء، وعلب فارغة، وورود ذابلة؛ أغلبها بلاستيكي، وبعضها طبيعي، كانت إحداهن تدوس على وردة ندية متعمدة بنعلها وتغمغم: لا يعرفون من الحب إلا اسمه..
- وأنا أتفرّس الوجوه، أبحث في الزحام عن وجهها، أستنشق الهواء بإمعان علّني أستدل عليها بعطرها.. وهناك في ركن من الساحة لمحتها.. تقدمت إليها حبوراً.. لم أر في وجهها سمة استبشار... لم أشتم أيّ عطر... اقتربت أكثر... استنشقت بإمعان.. لا عطر... لا رائحة.. لا ابتسامة... عيناها غائرتان... قميصها أسود.. كشعرها... سلمت عليها... ببرود ردت السلام... قلت مسرورا: هذهِ لك، وناولتها الهدية...
- قالت بلهجة محلية مكسَّرة: ماهوش في وقت، فات الأوان...

- غادرتني.. وقفت ذاهلاً.. وأنا أرمق شعرها الحريري المسترسل على قميصها الأسود، وفي طريقها داست وردةً حمراء ندية... والعجوز المنظِّفة تعقبها وهي تقول: دوسي عليها.. دوسي عليها.. اليوم ما هوش يوم الحب...
- بقيت مشدوهاً، وهديتي في يدي، أشيّعها بألف سؤال..

وغابت في زحام النساء المتّشحاتِ بالسواد... والعجوز تجمع الورود الذابلة... وصوت مزعج يكاد يمزّق طبلة أذني... انتبهت فزعاً.. إنه منبّه هاتفي... وصوت المؤذّن يشق صمت الوجود منادياً لصلاة الفجر... أنظر التاريخ في هاتفي.. لا فائدة.. فقد فات الأوان.

عنابة – 15 فبراير 2007

وحصلتِ عليكِ.. أخيراً

بخطوطٍ متفاوتةٍ أرسم ملامحكِ على خلفيةٍ زجاجيةٍ شفّافة، تساعدني النسمات المنسابة برفق صباحاً، أتفنّن في تشكيل قدِّكِ، أراعي في توازنه حاجتي الآنية، فتارةً أطيل جيدك، أمدِّدك باسترخاء، أنضح عليكِ رذاذاً ناعماً.. وتارةً أرسمكِ راكعةً مستوية الأطراف، تشكلين هلالاً ترقّ حواشيه ويعظم جذعه..

تفاجئني دائماً أبواق السيارات المستعجلة قبل أن أرسم التوقيع الختامي، فأضطر إلى مسح التشكيلات بسرعة، مخافة أن يكتشف أحدهم الرموز الأولى فيدفعه الفضول إلى التمهُّل لمعرفة الحقيقة..

أرمقك عند ملتقى الطرق الرابط بين الحلم والأسعار، حيث تلتقي رغبتي الجامحة في لفك بقميصي المرقّع، وخشيتي المفرطة من نظرات الأطفال المتسابقين إلى السيارات الملتزمة بالضوء الأحمر على قلّتها، وهم يتراقصون على نغمات القطع المعدنية التي تعيق مكعبات السكر ضبط نوتاتها.

أراك بين حروف وثائق التأمين، وداخل لوحات الأرقام المزوّرة.

أتلمسك بين النظرات الشاردة للمسرعين على طريق الأمل، ويزداد وجهكِ ألقاً عند زحمة الغروب.. أكاد أقسم أني أعانقك؛ أدفن أصابعي بين أضلاعك، أهمشك بشره.. وكلما أيقنت ذلك،

يزول الغبش قليلاً عن زجاج أحدهم فيضع في يدي قطعة معدنيـــة، يشعرني ملمسها الصلب أن من كنت أرمق ليســـت أنـــتِ،.. وإن كنت أحس أنكِ على مقربةٍ من المكان، يفصلني عنك حاجز رفيع..

أغير موقعي، تخلو الشوارع تدريجاً، تتغيّر اتجاهات السير، يكثر المهرولون إلى الشواطئ، تنبعث روائح العطور الفرنسية، تمتزج برائحة العرق، مشكلةً خليطاً أقنع نفسي أنه شـــبيه بعبقـــكِ.. وأحيانـــاً لا تصدقني.

أتلفع ببقايا قميصي، أتحامل بعزم، أشدّ خيوط أحذيتي، فتفوح الجوارب، تسقط قطعة القماش البنية علـــى الأرض، تتبعهـــا قنينـــة التلميع، يُحدث وقعها رذاذاً خفيفاً ممزوجاً بطينٍ رمـــادي اللـــون، يلامس وجهي فأقتنع أنها ليست الوضعية المثلى لطلبكِ..

أرتمي بعناء على عتبة البنك المجاور، أستغرق برهةً في الـــتفكير، تبتعد عني تدريجاً ضوضاء الشارع، تنساب حروف اسمـــك فـــوق شفتي، عذبةً.. عذبةً جداً.. أردّدها بلا وعي، وأنسى أوجاعي..

تصطدم خيوط القمر الفضية بقنينة الملمع، تشع على الـــبلاط، تتمازج مع الضوء المنبعث من الداخل، يرسم ظل القنينـــة وبريقهـــا شكلاً يشبهكِ حدّ التطابق..

يمرّ الشريط سريعاً أمامي، أذكر يوم كانـــت أمـــي تعـــدني أن تكوني مكافأتي حين أنجز عملاً صـــعباً، يـــوم كنـــت أردِّد ســـورة الإخلاص عشر مرات قبل النوم من أجل أن أحظـــى برؤيتـــك في الغد..

يوم كنت أتمارض لأقنع معلمي الفظّ بضرورة الخروج دقـــائق قبل نهاية الدرس كي ألتقيك على انفراد..

لم أكن أدرك أنه كلما تقدمتُ في العمر أشهراً، تتضاءل فرصي في الحصول عليكِ..

تفزعني القطع المنسكبة من جيبي على البلاط، فأعود إلى الواقع، أجمع النقود المتناثرة، أدقّقها، أستلُّ ابتسامةً باهتةً، وأعقد العزم على لقائكِ.

لن يكون لائقاً أخذك إلى مخبئي في الشاحنة المتهالكة التي يرمي فيها المنعمون بقايا طعامهم.. ولكنه المكان الأنسب للقاء.

أتقدّم بتثاقل.. يتحوّل البرد تدريجاً إلى صقيع، أشدّ بقوة طرفي قميصي فتعزف الخروق سيمفونيةً هادئة، يتجهّز الحراس لإحكام إقفالهم، أصب في كف أحدهم قطعاً مبعثرةً، فيسمح لي بالتسلّل إليكِ..

وأخيرا أضمك إلى صدري.. كم أنتِ ساخنة، ستكونين غطائي، وغذائي أيضاً، أيتها الخبزة اللذيذة.. غداً سأرسمك على زجاج أول سيارة ألمسها.. وسأوقّع لوحاتي بالحرف الأول من اسمي.. لن أخجل من ذلك بعد الآن..

نواكشوط.. 2007

درب..

وحيداً، هائماً بين زحام المارة، في شوارع المدينة الكبيرة، يلتفت يمنةً ويسرة، ينظر إلى بقايا حذائه الخرق، ويشد محفظة الأوراق إلى صدره، ويتابع المسير.

هذه حاله منذ عام، يتلمّس أيّ عملٍ مهما يكن بسيطاً، يعرف بالتفاصيل الدقيقة كل أزقة المدينة، كما يعرفه كل ساكنيها، يعاملونه بتفاوتٍ، فمن ناظرٍ إليه شفقة، ومن ناظرٍ إليه استهزاء، لكنه يعامل الجميع باحترام..

كثيرون أرادوا معرفة سره، وكلما سأله أحد عن نسبه أو قبيلته، أو عن تفاصيل حياته، ضم محفظة الأوراق إلى صدره بشدّة وغادر السائل دون جواب...

قليل الكلام لكنه يفاجئ من يسمعه، يناقش القضايا السياسية، مرتب الأفكار، واضح الرؤية، لكنه في المناقشة يكره شيئاً واحداً هو المقاطعة، حين تقاطعه يتوقّف عن النقاش فوراً..

في مكتبه المرتّب، دخلت السكرتيرة، أبلغته طلب المديرة لقاءه، رتّب أوراق مكتبه، عدّل ربطة عنقه، ودخل على المديرة.. بابتسامتها الودودة، استقبلته...

- وقِّع على هذه الوثيقة من فضلك...
- وما مضمونها؟

- دراسة التكاليف لتغيير معدات المكاتب..
- ومن أعدها؟
- مكتب دراسات متخصِّص...
- لكن ما الداعي لتغيير المعدات؟ و لم يمـــضِ عليهـــا ســـتة أشهر...
- تلك تفاصيل لا تعنيك... بوصفك المدير الإداري والمـــالي المطلوب منك التوقيع لا السؤال.

يدخل شخص.. وتقترح المديرة تأجيل المناقشة إلى الغد..

قبل عشر دقائق من وقت الدوام – كعادته دائماً يسلّم على من وجده في طريقه– باب مكتبه موارب.. يطرق الباب بلطفٍ ويدخل.

شخص على مكتبه يتصفح ملفاً يبدو من محتواه أنـــه دراســـة تكاليف.. يسلّم.. وبعد برهةٍ يرفع الشخص وجهه. إنه أخو المديرة الذي دخل عليهما أمس... يرد السلام ببرودة.

- تفضّلْ هل عندك موعد مسبق؟
- عفواً سيدي أعتقد أنك المعني بالإجابة عن هذا السؤال...
- السكرتيرة تدخل وتخبره أن المديرة تطلبه.

بابتسامتها الودودة تسلّمه محفظة أوراق وتضيف: تم الاســـتغناء عن خدماتك... لقد خدمت الشركة بإخلاص... شـــكراً جـــزيلاً لك...

يفتح المحفظة (شهادة الدكتوراه بمرتبة الشـــرف الأولى في إدارة الأعمال من جامعة جورج واشنطن، شهادة الماجستير في التسويق من جامعة عنابة، شهادة الماتريز في المحاسبة من جامعة نواكشوط).

وبين صفحات الملف تتبدّى وجوه ثلاثة أطفـــال أكـــبرهم في

العاشرة، توفيت أمهم قبل أشهر فقط... يهمّ بـــالكلام... يتراجـــع خطوةً إلى الخلف، يشكر المديرة... وقبل أن يغلق الباب يسمع صوتاً يقول: لقد خسرت الشركة رجلاً مخلصاً...

يضم المحفظة إلى صدره، يخلع ربطة عنقه، وبين زحـــام النـــاس يغيب عن أعين السكرتيرة التي كانت واقفةً ترمقه من بعيدٍ، وتحـــبس الدمعة في عينيها كي لا يلاحظها المدير الجديد...

ومن مكبّر الصوت المعلّق على باب أحد محـــلات الأشـــرطة السمعية ينبعث صوت الشاعر ينشد..

واضيعتي ما بين تأجيرٍ وصعلكةٍ

واضيعة العلم داسته الدولارات

يستلّ ابتسامةً من بين ركام حزنه ويقول: كان ذاك منذ عام... يضم محفظته إلى صدره ويحثّ الخطى... في دروب الوهم المتشعبة.

نواكشوط 2007

صفر اليدين..

استرق السمع إلى طالبين، يتحدثان فإذا أحدهما يؤكد للآخر أن المنحة الفصلية المستحقة في أكتوبر قد دخلت حسابه. نظر إلى ساعته، إنها الساعة الحادية عشرة من يوم الثلاثين من نوفمبر، تسلّل مستعجلاً بين الطلبة، انطلق بسرعة إلى أقرب مركز بريد، كان الطابور ممتداً من الشباك إلى خارج السور المحيط بالمركز، أسند ظهره إلى الجدار واستغرق في التفكير، انهالت عليه الأسئلة... ماذا ستشتري منها؟ لا تنسَ المعطف الشتوي، فالبرد قارس.. لا تنسَ المطرية فالسماء ملبّدة بالغيوم وقد تمطر في أي لحظة... صاحب الهاتف الذي اتصلت من عنده الأسبوع الماضي ووعدته بالتسديد من المنحة... صاحب المكتبة الذي صوّرت عنده كتابين الشهر الماضي... إياك أن تنسى صاحب المطعم فربما يأتيك ضيف غداً، من الأحسن أن تسدِّد له المبلغ خاصة وأنه لا يتجاوز الألف دينار... لا تنسَ الاتصال بأهلك، فأنت منذ فترة لم تتصل بهم... تذكّر البحث الذي ستقدمه بداية الأسبوع، يستلزم وجود مراجعٍ له في الإنترنت... أخذته سِنَةٌ خفيفة أفاق منها على شجارٍ بين عجوزين بسبب الطابور؛ أحدهما يقول إنه جاء قبل الآخر، مسح عينيه بمنديل، ووقف وسط الطابور، بدأ الحديث مع عجوز يقف أمامه – فاليوم يوم تسديد مرتّبات المتقاعدين – وهو معروف بيوم المحنة حيث يكون من أطول الأيام طابوراً.. تحدّثا عن ما

قبل الاستقلال، وعن الثورة، وعهد هواري بومدين... وامتد بهما الحديث حتى وصلا الشباك، نظر العجوز إلى ساعته وقال: إنها الساعة الرابعة إلا ربعاً "لحسن الحظ اوصلنا اقبل ما تقفل"، إنها تغلق الساعة الرابعة. انسحب العجوز فمدّ هو للموظفة جواز سفره مع صكٍّ بريدي فكتبت له على جانبه الآخر 2626 ديناراً أخذه منها بسرعة وكتب عليه 2600 دينار... لي شخصيًّا... ثم وقّع عليه ومدّه لها... وانزوى ينتظر أن يصل دوره في التسديد وهو يقول في نفسه: فقدت 100 دينار كنت أعوّل عليها بسبب المعاينة قبل السحب. نادت باسمه موظفة أخرى وسلمته المبلغ "ما يقابل العشرين أورو"، انطلق وعند خروجه من المبنى وجد المطر ينصب كأفواه القرب.. دخل أقرب محل تجاري واشترى مطرية بـ 400 دينار رفعها فوق رأسه ومشى.. إنه في قمة السعادة. دخل محل بيع الألبسة الرجالية ليشتري معطفاً شتوياً، سأل البائع بكم هذا؟ يا سيدي؟

- أجابه 4800 دينار.
- وهذا؟
- نفس السعر.
- وبكم هذا؟
- ذلك أغلى ثمناً.. إنه إيطالي من الجلد الصرف.. إنه بـ 9000 دينار.
- شكراً سيدي.. قالها للبائع ثم انصرف وهو يقول في نفسه سأذهب إلى السوق الشعبي فالأسعار هناك أقل.

وفي طريقه انزلقت علبة طلاء من يد أحد المارة، فتطاير الطلاء ولطّخ سرواله... وقف مندهشاً.. يا إلهي.. ماذا أفعل؟ أنا لا أملك

غيره والطلاء إذا جفّ لا يزول مطلقاً... ماذا أفعل؟ يا له من يـــوم مشؤوم، ماذا أفعل؟ فكّر في ضرب الرجل لكنه تذكّر أنه لا يحمـــل معه بطاقة المقيم الأجنبـــي وربما يسبب له ذلك مشكلة... وقـــف متسمرا والرجل يستسمحه ويبالغ في الاعتذار. انطلق وهو يقول في نفسه سيكون لزاماً عليّ أن أشتري سروالاً الآن لم أكن أبرمجـــه... دخل السوق الشعبية، وهو في غاية الحذر؛ ففي هذا السوق تكثـــر السرقة والاعتداءات، سأل صاحب المحل الأول: بكم هذا السروال؟

- بـــ: 3200 دينار.

فتجاوزه إلى المحل المجاور وسأل صاحبه: بكم هذا؟

حدق إليه الجميع باستغراب، فحالته مزرية وبقع الطلاء لا تزال طريةً على سرواله. أعاد السؤال لصاحب المحل: بكم هذا يا سيدي؟

- بـــ 3400 دينار.
- أووووف وبكم هذا؟
- بـــ 2600 دينار.

نظر في وجه البائع الذي تبدو عليه سيماء الصلاح فقال له: اسمـــح لي سيدي.. أنا طالب جامعي وليس معي ما يكفي من النقود معي فقط 2200 دينار ولا بد لي من سروال، فهذا السروال لا يمكن أن أغادر بـــه هذا المكان فإن استطعت مساعدتي فافعل... وبعد نقاشٍ وافـــق البـــائع على إعطائه السروال بما معه من النقود. أخرج ما في جيبـــه وقبـــل أن يسلّمه للبائع تذكّر أنه لا يملك غيره، ابتسم قليلاً ثم قال للبائع:

- اسمحْ لي يا أخي، هذا هو كل ما معي. هل يمكن أن تبقـــي لي منه ثلاثين ديناراً لأستقل الحافلة إلى حيث أسكن...

ابتسم البائع باستغراب ثم قال:

- لا عليك سأعطيك خمسين ديناراً.
- شكراً جزيلاً لك. لن أنسى لك هذا الفضل.

دخل مكان تغيير الملابس وأراد تغيير ثوبه فوجد ساقيه مبلّلتين بالطلاء. مسحه بالسروال القديم حتى تأكّد من جفاف بشرته، ثم لبس الجديد وخرج، وشكر البائع الطيب. وبعد خروجه تذكر الخمسين ديناراً، فرجع قليلاً ثم قال: عفوا سيدي... الخمسين.. فابتسم البائع وأعطاه الخمسين ديناراً.

انطلق بسرعةٍ والريح تكاد تخطف منه المطريّة وركب الحافلة المتوجّهة إلى محل سكنه. لم يجد فيها مكاناً للجلوس فوقف وأسند ظهره إلى الحافلة وبدأ بالتفكير؛ تذكّر المكتبة، الهاتف، المطعم، تذكر بحثه والاتصال بأهله. نظر من زجاج الحافلة فإذا الثلج يكتسح وجه الأرض، تذكّر معطفه الشتوي، تنهّد بصوتٍ عالٍ لفت إليه أنظار ركاب الحافلة، فطأطأ رأسه محرجاً.. وظل كذلك حتى وصل مسكنه...

نزل عند باب المسكن وفتح مطريته، ومع دخول الباب اصطدم بأحد المارة، رفع المطريّة ليستسمحه، فإذا به صاحب المكتبة سلم عليه الأخير ببرودة ثم قال: ماذا تنتظر؟ الجميع سدّدوا ديونهم إلا أنت... ثم أردف: لا تفسد ثقتي بك فأنا قبلت التعامل مع الآخرين بناء على معاملاتي معك أنت.. فماذا تنتظر؟

ردّ عليه وأسنانه تصطك من البرد: سأمرّ عليك فيما بعد لأشرح لك، فأنا كما ترى ألبس لباساً شفافاً... وودّعه.

دخل الغرفة وهو صفر اليدين.. سلّم على زملائه وقبل أن يخلع نعليه أخبروه بأن صاحب الهاتف يريده وكذلك صاحب المطعم.

ثم أردف أحدهم: ربما علموا أن المنحة الجزائرية الفصلية قد دخلت، لذلك أرسلوا يطلبون التسديد...

صعد السرير العلوي واستلقى وهو يقول في نفسه: تُرى هل تعلم حكومة بلدي بهذا؟ هل تعلم أن المنحة الجزائرية التي على أساسها ترفض زيادة منحتنا لا تكفي لشراء ثوبٍ واحدٍ أو كتابين أو عشاءٍ واحدٍ لثلاثة أفراد؟ هل يعلم العسكر أن هذه المنحة الفصلية التي قيمتها 900 دينار شهريّاً قد تأخّرت شهرين متتابعين عن موعدها؟

ثم نظر إلى اليومية المعلّقة على الجدار وهو يبحث عن الواحد والثلاثين من ديسمبر، موعد تسليم المنحة الوطنية، التي بدورها قد تتأخّر عنه شهرين وربما أكثر.

عنابة 2007

لفتة مصير..

مثقلاً بالأسئلة الكبيرة والسخيفة، تتقاذفني الأولويات، تشـــطُّ بـــي الأفكار.. تنعكس الصورة المفزعة على زجاج السيارة المغبّر... مشهد يجمِّد الإحساس.. تتسلَّل الهمسات الخافتة إلى أذنيّ تقطع حبل الشك.. تكتسحني قشعريرة جارفة، أقيس سريعاً المسافة الفاصلة بين قلبيكما، لم تكن تزيد على الشبرين..

كانت ملامحه واضحة.. رجل قاسمتـــه الأفكـــار والأحـــزان.. يشاركني هواية القلق، نمتلك معاً موهبة نكء الجراح، وحفظ أسمـــاء السلاطين عن ظهر قلب.. نخطِّط معاً للهجرة إلى اللا نهاية.. نكفـــر كلانا بالوطن.. بالقبيلة.. ونؤمن بالحلم.

كان قرار الالتفات صعباً.. بل جريمة، ماذا سأقول حين تلتقـــي عيوننا الست في دائرة الخجل الحمراء..؟

حين تتضاعف جاذبية الأقطاب السالبة في نظراتنـــا،.. تتنـــافر المشاعر.. يضرب كلّ منّا برجله الأرض، عـــلّ قدمـــه تســـيخ في موطئها..!

كيف سأقنع الهاجس المختبئ في حنايـــا الـــروح أن الصـــداقة تقتضي تقاسم كل شيء..!

وأن الأنانية المفرطة التي ننغمس فيها كل فجر.. نعمـــد فيهـــا أبكار أفكارنا.. وكل المفردات التي نجترحها من قواميس ابن حزم، لم

تكن غير رسوم عبثية زُيِّن بها وجهٌ تستّر وراء المساحيق، تخفي ألوانه المتناقضة دمامةً ما تلبث أن تفضحها المعة، | أو الضحكة، أو الحركة المفاجئة الأولى..؟

تتكاثف الأشكال العشوائية أمامي، تحجب عني التفاصيل الدقيقة لوضعكما.. والهيئة لا تزال كما هي.. وإن خفت الهمس.

أحسست أن الموقف لا يستدعي الإجابة الآنية على كل تلك الأسئلة، وأن لفتةً جزئيةً ستضع حداً لنهاية حلم أو حياة أحد الثلاثة..

سقطت مفاتيح السيارة من يدي، ومن الأخرى سقطت رزمة أوراق كنت أدوِّن فيها خواطر بُعَيْدَ حديثنا البارحة، وسقط قلبي.. وقلمي أيضاً سقط.

أهو الحلم.. أهي الغيرة.. الحب.. الحقد.. الأنانية.. أم تراه الغضب..؟!

لم تسعفني اللحظة بإجابة، فيما اللاشعور ينحني، يلملم ما نثرته العاصفة، يتلمّس المفاتيح..

ترتعد كل خلية في كياني، تلح إحداها وهي قابعة في تلافيف دماغي على يدي أن تتحرّك، وعلى عنقي أن تستدير ربع دورة.. وعلى رجلي أن تتخلّص من تخدّرها المباغت..

لكن الثورة الهوجاء ألغت امتيازات الدماغ، ما عادت له سلطة التحكُّم والتعقُّل..

تتشظّى الهواجس مخترقةً مسامات جلدي، تقف كل شعرة على انفراد، متصلبةً في استعراضٍ منتظمٍ للقدرة على التفاعل.. وتنساب قطرات العرق على الزجاج جارفةً الغبار، لتشكِّل بقعةً ساطعة..

أمعن النظر في المشهد، أرجع بصري كرّتين.. لا شيء..

أضغط بعنف على عيني، فتكثر الأشكال العشـــوائية، وتحمـــل زوبعة كيساً مطاطياً يغطي البقعة الساطعة..

أستدير بوجل.. تسابقني نظراتي إلى موضع اللقـــاء المشـــؤوم، تشتعل الأسئلة الحارقة، تلح الاحتمالات، تبعث خلايا التسلّط أوامر جديدة..

يتكسّر كل ذلك على المدى المشبع بالغبار.. يتزاحم المسارعون في المدارات، الباحثون عن إجاباتٍ مقنعة، لاستفساراتٍ حتميةٍ مساء كل يوم.

ينبجس في خلدي شعور عارم، أفقد الســـيطرة مجـــدّداً علـــى وجودي.. أفغر فمي.. تدور عيناي مفتوحتين بطاقتهما القصـــوى، تحملقان في الأفق السحيق.. بلا جدوى.

يقودهما الحدس عنوةً.. تستقران على زقاقٍ يلتهم سواده بقايـــا ثوبٍ تخلّف عن صاحبه شبرين.. ويد تستحثه على اللحاق..

نواكشوط 2009

ولماذا يضحك..؟!

على غير عادتها، كانت زوجتي تقف على بـــاب العـــريش في كامل صحوها وتقول إن الشاي جاهز.. لم أصدق سمعي، فلم يحدث أن استيقظت في هذا الوقت،.. كان ابني ينتزع المسبحة مـــن يـــدي ويضحك.. يضعها في فمه، يرميها على الأرض ويضـــحك.. نوبـــة غريبة من الضحك انتابته من غير سبب.. ردّدت مريم: ألم تســـمع؟ قلت لك تعالَ فقد بردت كأسك..

حملت ابني على كتفي، كان مشدوهاً إلى المسبحة قرب طاولة التلفزيون وما زال يضحك. أثارت ضحكاته زوجتي فلم تتمالك أن ضحكت.. وضحكتُ أنا أيضاً..

- من أين جئتِ بكل هذا؟
- من دكان سيد أحمد؟
- ألم يقل لك البارحة إنه أغلق الدفتر حتى نهاية الشهر؟
- بلى.. ولكني فوجئت به اليوم وهو يسلّم علـــيّ منبســـط الأسارير، يحمل على كتفه كيس الخبز، فانتهزت الفرصـــة وطلبت كل شيء دفعةً واحدة. لم يعلِّق ولو بكلمة.. كان يتابع أمراً ما من شق بابه.. أعطاني ما طلبت وحمّلني السلام إليك..
- غريب!

* * *

في العريش المخصّص للأمتعة.. وجدت ملابسي مرتبة.. قميصاً قرمزي اللون مكوّياً حديثاً وُضِع على بنطال أسود، حذاءً ملمعاً وعليه جوارب جديدة؟

- من فعل هذا يا مريم؟
- أنا
- متى؟
- استيقظت لدى خروجك إلى الصلاة فأردت أن استغل انتظاري عودة سيد أحمد من المخبزة في كيّ قمصانك...

لا شك أن إحدى بنات خالها عادت من سفر أو رُزِقت مولوداً.. قطعاً عندها طلب كبير ستلقيه على كاهلي... تمتمت بذلك وأنا أريح عبق عطر جميل ضمخ به القميص..

قبلت ابني قبل الخروج، وحين أنزلته عن كتفي حبا إلى السرير، يتوقّف كل سنتمترات، يلتفت إلى أحد جانبيه ويضحك.. يضع كل ما وقعت عليه يده في فمه.

على الرصيف المغبّر وأنا انتظر الحافلة كان تصرّف زوجتي الغريب يشغل ذهني. لم أستوعب هذا التفاني والنشاط المفاجئ، وهذه السعادة التي غمرت الجميع فجأة، حتى سيد أحمد الذي يتجادل الجيران في حقيقة أنه فقد إحدى قواطعه في حرب الصحراء. قالت مريم إنه لم يعلق على ما أخذت من دكانه... أخرجني منبِّه سيارةٍ فارهةٍ من سورة شرودي، أشار إلي صاحبها بعدما توقّف في منتصف الطريق.. تقدمت خطوات منه مستفهماً عن غرضه..

- ألستَ قاصداً وسط المدينة؟
- بلى سيدي..

- تفضّل إذاً.
- شكراً لك.. أنا أنتظر الحافلة.
- تعال.. أنا ذاهب أصلاً إلى مجمّع الوزارات. ما يضيرني لو حملت من يؤنسني؟
- جزاك الله خيراً.

كان الخطاب الطويل لرئيس الجمهورية لا يزال متواصلاً في الإذاعة، وصوت مكيِّف السيارة أضفى عليه هدوءاً ناسب وعوده.. أحسستُ بشي صلب في جيبي، تلمسته فإذا ورقة مقتطعة من كيس الشاي، كُتِب عليها بخطٍّ رفيع متداخل الحروف كأن صاحبه كان مرتبكاً "عُدْ سالماً.. أحبك.. أم بلال".

انفجرت ضاحكاً.. خفّض الرجل المتأنّق صوت المذياع، وقد استغرب ضحكي المفاجئ، فاسترق النظر إلى الورقة، ثم غلبت ابتسامة ملامحه الرسمية..

- معذرة مسبقاً.. ولكن ألم تجد غير هذا الاسم لابنك؟
- أنت أيضاً تعترض عليه؟!
- لا أظنه لأحد من أقربائك.. أليس كذلك؟
- جدتي رحمها الله توفيت وهي ترفض أن تنادي ابني بهذا الاسم. قالت إنها رأت في منامها أحد الأولياء يخبرها أن ابني سيكون اسمه يحيى وقد أزعجها إصراري على بلال، الذي ليس موجوداً في شجرة عائلتنا...

أعدتُ النظر إلى الورقة، وضحكتُ من جديد.. غريب أمر زوجتي! مرت علينا خمس سنوات منذ تعارفنا و لم تقل لي يوماً "أحبك"، حتى أيام الجامعة حين كنت أهديها ما استطعت شراءه من منحتي كانت تكتفي بالقول: لماذا تكلِّف نفسك..؟

وفجأة تستيقظ اليوم فجراً، تجهِّز الشاي، تكوي الملابس، تلمِّع الحذاء وتقول: "أحبك"!

لم تكن في الطريق زحمة، وكأن الناس مشغولون بأمرٍ عظيم، حتى المتسوّلون الذين تعج بهم ملتقيات الطرق في مثل هذا الوقت كانوا قلّة، و لم يكونوا متحمّسين، ربما لأنه لا ازدحام يجبر السائق على التوقف. حاولت إحداهن الوقوف مستندة إلى عكازها لكن السيارة لم تتمهّل عند الضوء الأحمر فعادت المسكينة لمواصلة حديثها مع جارتها التي كانت تبتسم.

لم أجد في مقر الشركة حين أنزلني الرجل الكريم عندها سوى بائع بطاقات التزويد. سلّم عليّ بحرارة بعدما نزع سماعةً من أذنه اليمنى قائلاً: ألن تشتري اليوم بطاقة.. كل شركات الاتصال ضاعفت الرصيد اليوم؟

- ما المناسبة؟
- لا أعرف، أدخلت بطاقة في هاتفي الشخصي فأظهرت رصيداً مضاعفاً ثم اكتشفت أن كل الشركات لديها عروض مماثلة.
- لا بأس إذاً.. ووضعت في يده المائة التي لا أملك سواها طالباً تحويلها إلى رصيد.

في الساعة العاشرة، وبعد ما أكملت تنظيف المكاتب وجلبت الإفطار للمدير العام، ووضعت الإبريق على الفرن لأعد له الشاي، ناداني رئيس مصلحة الموظفين، كانت قسماته عابسة خلافاً لكل من التقيت اليوم، نظر إليّ شزراً، وقال بصوتٍ أجشّ كأنه يصدر من أمعائه: شكراً لإخلاصك، لا داعيَ لتحضير الشاي، هناك من سيقوم بتلك المهمة.

- هل لك حاجة ترسلني إليها؟
- لا.. ولكن الشركة استغنت عن خدماتك.

ارتعدت فرائصي، حاولت أن أقرأ في عينيه بريق المازح، أو أن أحفِّزه بصمتي على تفسير ما قال، غير أن شابا آخر قاطعني بقوله: أين تضع السكر؟

- هناك في الخزانة المحاذية لمدخل قاعة الاجتماعات... قلت ذلك وأنا شارد. تماسكت واستجمعت كل قواي وقلت للرئيس: هل يمكن أن أفهم خلفيات القرار؟

نظر إليّ ببرودٍ، وقال: من لا يشكر الناس لا يشكر الله.. ثم أشعل سيجارته وألقى بثقله الكامل على مسند الكرسي.

على بوابة الخروج استقبلني بائع بطاقات التزويد قاطعاً حديثه مع أحد زبائنه: سمعت أنهم فصلوك.؟

- سمعت ذلك
- هل عرفت السبب؟
- لا، لم يقدم لي تفسيراً.
- سمعت أن المدير العام قال إن ابنك كان يضحك اليوم وهو ينظر إلى الرئيس في التلفزة... قال ذلك وهو يشغِّل مكبّر الصوت المعلّق على كتفه..."تحويل رصيد، ألف، ألف، وخمسمائة، ألفين، أربعة آلاف..." فيما كنت أتفرّس في وجوه السائقين بحثاً عن محسن.. ويدي تضغط قطعةً من كيس شاي".

موسكو.. 2010

المنتظر..

بجلبابها البنيّ الذي يغطّي قدميها، وحجابها الأبيض المنسدل إلى منتصف جسمها راسماً مثلّثين متوازيين، وحاجباً لون شعر يجهله كثير من معارفها، تقدمتْ بتؤدة تتأمّل المباني المحيطة بساحة الثورة الشهيرة في عنّابة، حيث السيّاح والمتسوّلون ومشاريع العشاق.. لا تعرف لِمَ تجاوزت مقهيين في المدخل الغربي، شيء ما داخلها جعلها تتوجّه إلى الثالث، تسحب بهدوء كرسيّاً منسوجاً من سعف النخل، وتنظر إلى ساعة الهاتف. ربما موقعه المناسب وسط أشجار الصفصاف، وربما ارتباك من يزور هذه المدينة للمرة الأولى..

محمحمة النادل نبّهتها من شرودٍ خفيفٍ تأملت فيه أسراب الحمام المنزلي وهي تحط وتطير بين المقاعد. تصفحت قائمة المشروبات التي كانت في أغلبها مثلجات تطفئ حرارة يوليو في مدينة تغرقها الرطوبة كل صيف.. طلبت كعكةً وكأساً من عصير الفواكه المشكّلة الطازجة..

ابتسم النادل كعادته، لكنه عاد بعد خطوتين وقال: هل قلتِ عصيراً طازجاً...

- نعم
- شكراً سيدتي، سيكون جاهزاً خلال خمس دقائق..

استطاعت أن ترى من زاوية عينها اليسرى النادل يتحدّث إلى المشرف عليه، وابتسامتهما المريبة.. للحظة خطر لها أن قرارها غير

صائب، لكنها ما لبثت أن تراجعت عن ذلك، فظل الصفصافة كان أقوى جاذبية في هذا الحر، "ربما أنا الوحيدة التي تلبس جلباباً سميكاً في هذه الساحة، أو أني الوحيدة التي تجلس على طاولة يقابلها كرسيّ شاغر"، قالت في نفسها محاولةً تفسير ابتسامات النادل ومشرفه.

طعم العصير بدا مألوفاً، مع أنها لم تشربه من قبل. أثناء شربه كانت تقلّب صفحات جريدةٍ أخذتها من الكشك القريب، لم تجد فيها ما يستحق القراءة، فأشارت إلى النادل..

- الحساب من فضلك..
- ألن تطلبي شيئاً آخر. لدينا تشكيلة من المثلّجات قد تعجبك..
- لا، شكراً. ربما في المرة المقبلة

غاب عنها للحظة، ثم عاد وصدغاه تعتريهما رعشة خفيفة جداً، كأنه خجل مما سيقوم به. تردّد قليلاً ثم قال.. هذا الحساب، عليك فقط دفع ثمن الكعكة لأن العصير مدفوع الثمن..

- من دفعه..؟!
- من الصعب أن أشرح لك، سيدتي.. لكن – سعل قليلاً– قبل أربعة أعوام كان لدينا زبون دائم يجلس على هذه الطاولة مساء كل جمعة، ويراقب ساعته كأنه ينتظر أحداً، وفي المرة الأخيرة دفع ثمن عصير فواكه مشكّلة وقال لي إن جاءت فتاة محجّبة وجلست على هذه الطاولة وطلبت عصيراً طازجا لا تدعْها تدفعْ ثمنه.. كما ترك هذه الورقة..
- ومن قال لك إني تلك الفتاة.. فهذه المرة الأولى التي أزور فيها مدينتكم، سأعتبر هذه إهانة. قالتها بحدّة.

- معذرة سيدتي، هو أيضاً لم يكن من أهل البلد. انظري إلى الورقة ربما فيها ما يدل على أنها أنت، كما أني أعمل منذ ست سنوات و لم يصادف أن اكتملت كل المواصفات قبل اليوم.. أنا آسف سيدتي..

"المنتظر قد يأتي.. ولو بعد حين.. م" هذا ما كان في القصاصة التي طُوِيت بشكلٍ جيد، ويدل مظهرها أنها كُتِبت منذ أمد..

- غريب.. على العموم خُذِ المبلغ كاملاً واعتبره إكرامية لك.. مع أني لم أفهم شيئاً مما في الورقة.. "المنتظر قد يأتي.."
- شكراً سيدتي، هنيئاً.. قالها وهو يمسح الطاولة بمنديل أبيض، ويراقبها بطرف عينه وهي تغادر المقهى باتجاه المكتبة.

* * *

بين الرفوف المتقاربة جداً إلى درجةٍ لا تسمح لشخصين بالمرور دون تماس، تصفّحت عناوين عن الطبخ الجزائري وكتباً عن السياحة والثورة الجزائرية أغلبها باللغة الفرنسية، ثم اختارت كتاب "ذكريات عاشقٍ فاشل.." تقدمت إلى الشباك لتدفع ثمنه، لكن البائعة التي كانت منشغلةً بأكثر من مهمة رمقت العنوان بسرعة وقالت: خذيه، إنه لكِ..

- عفواً، هل تتحدثين معي..؟
- biensûr (طبعاً) مع مَنْ إذاً؟
- لا أعرف.. ولكن لم أدفع بعد ثمنه..

- هذا الكتاب مجاني، حصل عليه قبل مدة أحد زوار المكتبة في سحب على الجوائز، وتركه هنا طالباً منّا إعطاءه لأول فتاة تطلبه..
- منذ متى؟
- Depuis 4 ans (منذ أربع سنوات).. قالتها وهي تأخذ مجموعة كتبٍ من زبونٍ آخر، وتمرر عليها جهاز الإدخال..

لا تبدو أحداث اليوم من النوع المألوف مطلقاً.. تأتي إلى مدينة للمرة الأولى، فيدفع عنها مجهول ثمن العصير، ويعطيها آخر كتاباً..

أوقفت تاكسي، غمغمت: لا تقل لي أنت أيضاً إن أحداً دفع لك مسبقاً..

لم يسمع ما تقول فقد كان يردّد بانسجامٍ أغنية جو داسان

Et si tu n'existais pas, Dis-moi pour quoi j'existerais

التي تنبعث من المذياع.. ثبّتتْ عينها على الصفحة الأولى مشدوهةً وهي تقرأ: "لا يستحقه غيرك.. م".

فطفقت تبحث في حقيبتها عن الورقة التي أعطاها النادل إياها.. فيما أصوات أبواق السيارات المنتظرة تعزف مقطوعة متواصلة من الغضب.. وشيء من الحزن.

دبي – 2011

خاتمة..

وما زلت أنتظر..

دبـــي 2013

سيرة ذاتية

أحمد ولد إسَلْمُ

- كاتب وصحافي موريتاني مقيم في قطر.
- من مواليد مدينة النعمة في الشرق الموريتاني سنة 1984.
- حاصل على شهادة البكالوريوس في الإعلام التلفزيوني من جامعة عنّابة في الجزائر.
- يعمل حالياً رئيس تحرير نشرات مساعداً في قناة الجزيرة.
- عمل منتج أخبارٍ في قناة العربية وقناة الآن في دبـــي.
- عمل مراسلاً حربياً خلال الثورة الليبية وغطّى عدداً من الأزمات في العالم العربـــي من البحرين إلى ليبيا وتونس لصالح قنـــاة الآن في دبـــي.
- كما عمل فترة نائب رئيس تحرير في قنـــاة روســـيا اليـــوم في موسكو.
- تولى رئاسة تحرير وكالة نواكشوط للأنباء ووكالة أنباء الأخبـــار المستقلة في موريتانيا.
- يكتب بشكلٍ منتظمٍ في الصحف الموريتانية منـــذ 2003 ولديـــه عمود أسبوعي في جريدة الأخبار إنفو الموريتانية الصحيفة الأكثر انتشاراً في موريتانيا باسم "كلمات متناثرة".
- حصل في 2009 على جائزة أفضل قصة قصيرة في مسابقة قصص

على الهواء التي تنظمها إذاعة بـــي بـــي سي ومجلة العربـــــي الكويتية عن قصته "ورقة عائمة".

- أعدت إذاعة صحراء ميديا الأوسع انتشاراً في موريتانيا سلســـة حلقات من قصصه ضمن برنامج "هكذا سرد الرواي".
- نشر عشرات المقالات والقصص القصيرة في صـــحفٍ عربيـــةٍ وموريتانيةٍ منها، صحيفة الخليج الإماراتية والقـــدس العربـــــي اللندنية والشرق القطرية وموقع العربية نت.
- من مؤسسي اتحاد المدوِّنين العرب وأول رئيس لاتحاد المـــدوِّنين الموريتانيين المؤسس سنة 2008.
- أطلق عليه نائب رئيس اتحاد الكتاب الموريتانيين الشاعر المختـــار السالم ولد أحمد سالم لقب "حامل لواء القصة القصيرة".

يمكن التواصل معه عبر:

ahmedisselmou

@ahmedisselmou